الإصلاحيون
أحمد أمين

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (14)

- **الإصلاحيون (أحمد أمين)**
- **اختيار: د. خالد محيي الدين البرادعي**
- **سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (14).**
- **اتحاد الكتاب العرب**
- **كانون الأول 2007**

الإصلاحيون

أحمد أمين

اختيار: د. خالد محيي الدين البرادعي

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (14)

كانون الأول 2007

الحقوق كافة
محـــفــوظـة
لاتـحــاد الـكتّاب الـعرب

البريد الإلكتروني: y E-mails.unecriv@net
u@net.syar
موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت
www.awu-dam.org

إخراج: سنديا عثمان

❑❑

الفكر النقدي لرواد عصر النهضة

أ. د. حسين جمعة

1 ـ إطلالة تاريخية:

انشغل الفكر العربي في مراحله التاريخية ـ على الدوام ـ بالعلاقة الحيوية بين المثقف/المفكر وبين الوسط المحيط به، وحاول بيان ما يقوم به في ذلك، في الوقت الذي كان يبحث عن تفسير علاقة الأرض بالسماء وانبعاث فكرة الألوهية المالكة لكليهما، على اعتبار عجزه عن إدراك الماورائيات. ومن ثم تداخلت صورة الإله بالحاكم الذي اصطفاه على شاكلته، مهابة وقوة وطاعة ورحمة ورأفة وعدلاً و... وهو الحامي للرعية من الوحوش واللصوص، ما يعني أن مصلحة الرعية تخضع لراعيها. ولعل من أقدم الأمثلة على ذلك ما ظهر في ملحمة جلجامش[1]، ويبدو أن هذه الرؤية للحاكم مازالت مستمرة حتى اليوم.

وحين يشير أحدنا إلى ثقافة الأجداد منذ البابليين والسومريين والآشوريين والفينيقيين و... فلا يعني أنه من الذين يتعبدون لتلك

---

[1] انظر جذور الاستبداد 31 و46-48.

الثقافة وإنما يريد أن يتمثل معطياتها وأبعادها لدراستها دراسة موضوعية، وليفيد منها ويتعظ بدروسها. والتاريخ العربي قبل التاريخ الإنساني يدفعنا دفعاً إلى تمثل حركة النهوض لمشروعنا الوطني والقومي ثقافياً وسياسياً واجتماعياً وتقنياً وعلمياً وفنياً وأدبياً و... في الوقت الذي يدفعنا إلى المثاقفة مع الآخر الأجنبي لنتلقف تجاربه وفق خصائص هويتنا الفكرية والثقافية.

وعلى الرغم من هذا فإننا نرى أن كل مرحلة تاريخية انشغلت بالهموم المستجدة في حياة مجتمعاتها وثقافتها، وبالسياسة التي تختارها لنفسها، وظهر الأديب أو المثقف الذي يصطنع لنفسه مكانته الفريدة. ففي العصر الجاهلي كانت سلطة القبيلة ورئيسها هي النظام الشائع، وحينها ظهر الأديب ـ ولاسيما الشاعر ـ الذي يدافع عن قبيلته ومفاخرها وأحسابها وأيامها، لهذا كانت تفخر بمولد الشعراء فيها[1].

وفي ذلك كله كان الأدباء أو الفقهاء، أو اللغويون يمثلون أبرز مثقفي ذلك الزمان باعتبارهم جزءاً متكاملاً مع السلطة وقَلَّ أن كانوا مناوئين لها فإذا خالفوها لقوا شراً مستطيراً كما حدث لابن المقفع مع والي أبي جعفر المنصور[2] وهذا لاينسينا ذكر عدد غير قليل منهم شكلوا جماعات متجانسة في خدمة ما آمنوا به، ومنهم من كوّن فريقاً واحداً في الدفاع عن الجماعة التي انتمى إليها كشعراء المذاهب والفرق، فنأى مثقف تلك الأيام بنفسه عن الفردية والأنانية بعكس كثير من مثقفي هذه الأيام، دون أن ننسى أن "مفهوم المثقف لم يرد ذكره في الحضارة العربية الإسلامية بمعناه الحديث..." [3].

2 ـ عصر النهضة:

---

[1] انظر العمدة لابن رشيق 65/1.

[2] انظر كتابنا ابن المقفع بين حضارتين.

[3] انظر السلطة الثقافية . فخري صالح وعلي أبو مليل . مجلة الكرمل . عدد 51 . ربيع 1997م . ص 320.

إذا تجاوزنا المراحل التاريخية العديدة الأخرى فإننا نتوقف عند مفكري القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ممن شكلوا ثقافة عصر النهضة العربية. فهؤلاء تناولوا الثقافة في إطار القضايا الكبرى التي مَرَّ بها المجتمع العربي، وعالجها أكثرهم من خلال أطر فكرية اجتماعية ودينية وسياسية في ضوء مفاهيم الإصلاح والتطوير، ما جعلهم ينثرون آراءهم بين يدي المشروع النهضوي التحرري الذي تبنوه في ضوء منهج عقلي مزج بين الأصالة والمعاصرة، إذ استندوا إلى التراث العقلي الذي وجدوه عند ابن المقفع والجاحظ وابن سينا وابن رشد وأبي حيان التوحيدي وأبي العلاء المعري وابن خلدون وغيرهم في الوقت الذي انفتحوا على الثقافة الغربية.

وكل من يرجع إلى تراثهم الفكري يجد أن النزعات الفكرية لديهم توضح طريقة التفكير النقدية الجديدة التي تغيرت في مسيرة تطور الفكر العربي... وقد تقاطعت عقلية التنوير في عصر النهضة بالحرص على القياس مع عقلية التنوير في أوربا دون الانفلات من التراث العربي الذي اشتمل على اتجاهات عقلية ملموسة في كثير من المستويات وعند عددٍ من الفلاسفة العرب كما رأيناه عند ابن رشد في القرن الثاني عشر[1]، وعند ابن خلدون القرن الخامس عشر وهو القائل: "العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها"[2]. ولعل المسار الخاص للثقافة العربية في عصر النهضة يبرز المناهج والمرجعيات والمفاهيم التي آلت إليها في إطار التفاعل مع الآخر الغربي والانفتاح عليه والحوار معه؛ دون إلغاء أو إقصاء له، أو ذوبان، أو انصهار فيه أو تطابق معه.

---

[1] انظر فلسفة ابن رشد . دار الآفاق الجديدة . بيروت . ط2 . 1979م . ص 20.

[2] مقدمة ابن خلدون . دار الكتاب العربي . بيروت/ ط1 . ص 460.

فالثقافة العربي في عصر النهضة كانت تتجه إلى كل ما فيه صلاح الأمة ونهضتها[1]. فهي محكومة بالمبادئ والقيم السامية والحوار الحضاري، ما أبعدها عن الصراع، وأدخلها في مفهوم التفاعل الحضاري بين الثقافات، بعكس ما يحصل لدينا اليوم. فرواد عصر النهضة أيقنوا بأن الحضارة الكونية حضارة واحدة، ولكنها تتعدد في مستوياتها الثقافية والمدنية؛ ما يجعلها تكتسب سمات أهلها طبيعة ووظيفة، فتتخذ لنفسها خصوصية متفردة... وحين آمنوا بذلك كانوا ينطلقون إلى الانفتاح على الثقافة الأوروبية دون أن تخطف أبصارهم وتستلب عقولهم... وحين تركزت رحلاتهم إلى (باريس) فإنهم أفادوا مما فيها ونقلوا ما رأوه مفيداً للأمة.

فرفاعة الطهطاوي ـ مثلاً ـ كان واعياً وعارفاً بما يريد، فعُنيَ بنقل الصورة الثقافية الحضارية لباريس، ولم يكن منساقاً غافلاً عن الجوانب التي لا تنسجم مع عقيدتنا وثقافتنا، ما جعله يأخذ بأسباب التقدم والنهوض دون غيره[2].

فالتقدم الحضاري مقترن باستثمار العقل واستحضار كل ما من شأنه لنهوض الأمة... ولعل هذا الهدف قد جعلهم يتسابقون للوصول إلى منابع الارتقاء؛ فهم يواصلون العمل بجد وإخلاص، ويلزمون كل مكان زاروه في الغرب لينهلوا منه ما يريدون ويشتهون، وإن أخذتهم في البداية صورة الانبهار بالمدينة الغربية كما حدثنا عنه فرنسيس مراش؛ إذ قال: "وها أنا الآن في مركز العالم وأعجوبته. هوذا تيار

---

(1) انظر الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة . عبد الله إبراهيم . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت . ط1 . 2004م . ص 5.

(2) انظر باريس في الأدب العربي الحديث . خليل الشيخ . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت . 1998م . ص 33، والفكر الليبرالي عند فرنسيس المراش؛ بنيته وأصوله وموقعه في الفكر العربي الحديث . كرم الحلو . مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت . ط1 . 2006م . ص 149 . 151.

البخار قد دفعني الآن إلى مدينة باريس مصب أنهار العجائب، وموقع أنوار التمدن والآداب. وها قد أخذت عيناي ترى ما كان يراه ذاك الذي حفظته أرواح الآلهة إلى السماء الثالثة. فلا ريب أنني أقاسمه حاصل العي والحصر، وأبادله نفس البهتة والحيرة في ميدان الدهشة والانذهال لدى ما يوجد من العجب العجاب الذي يأخذ بكل رشد وصواب"[1].

ولست الآن في معرض إثبات الأدلة على استعمال العقل عند هؤلاء المفكرين على اعتبار أنه يكوّن الوعي النقدي الذي يخلّص المثقف من الإذعان للسلطة القاهرة غير الشرعية سواء تمثلت بسلطة الرأي والإيديولوجية، أم تمثلت بالحركات السياسية والفكرية التي ولدت، أو بسلطة الخلافة العثمانية ثم سلطة الدولة أياً كان نوعها، أم بسلطة المؤسسات الفكرية الثقافية أو أي مؤسسة أخرى. فلو رجع أيٌّ منا إلى تراثهم لتبين له صحة ما نذهب إليه، ولكننا في معرض إثبات منهج بعض مفكري عصر النهضة ممن كان لهم باع كبير في إطلاق المشروع النهضوي العربي الجديد الذي أفاد من التراث العربي بمثل ما عني بالمثاقفة مع الحضارة الغربية في صميم الانفتاح العقلي.

"وقد وَفَّق كثير من أرباب الفكر القومي والإسلامي بينهم وبين مفهوم القوميات الداخلة في الإسلام، على أساس الجنس قبل الدين؛ بل اعترفوا للآخر الأوربي بقوميته ولم ينكروا عليه مغايرته الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية، وانفتحوا عليه يتعاونون معه أو يتعلمون منه كما وجدناه في عصر النهضة عند رفاعة رافع الطهطاوي (1801- 1873م) مؤسس الليبرالية الحديثة في الثقافة العربية التنويرية ولا سيما كتابه (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) الذي لخص فيه القانون الفرنسي تلخيصاً مفيداً، وكذلك كان خير الدين التونسي (1820 - 1890م)في كتابه (أقوم المسالك في معرفة أحوال

---

[1] رحلة باريس 1867م . تقديم قاسم وهب . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت . 2004م . ص 45.

الممالك) وأحمد فارس الشدياق (1804- 1887م) في كتابه (كشف المخبا في فنون أوربا) وعبد الحميد الزهراوي (1855 - 1916م) في (رسالة الإمامة وشروطها) ومقالاته العديدة التي نشرها في (المؤيد، والجريدة) ومحمد الخضر حسين (1870- 1958م) في كتابه (مدارك الشريعة الإسلامية) وكتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) ومقالة (الخلافة الإسلامية) في مجلة (البدر التونسية ـ مجلد ـ 1) وأحمد أمين (1886 - 1954م) في كتبه العديدة مثل (فجر الإسلام) و(ضحى الإسلام) ومحمد الطاهر بن عاشور (1879 - 1973م). ولا شك في أن كتب هؤلاء الرواد عبَّرت عن فهمهم لطبيعة أوربا، وأظهرت تقدم مدنيتها، بيد أن هدفهم تركز حول نهضة العرب والإفادة فيها من التقدم الغربي مع إقامة توازن بين العقيدة والعروبة من جهة وبينهما وبين الإفادة من الغرب من جهة أخرى، وفق مبادئ اعتماد العقل والحرية والعدل السياسي والاجتماعي.

ولم تحقق هذه الحركة الإصلاحية التنويرية في مشروع العرب القومي تقدماً يوازي طموحاتها؛ على شدة الحماسة التي يتصف بها أربابها؛ لأنهم أرادوا إصلاح نهضة الأمة بإصلاح الأنظمة الحاكمة فقط إذ أرادوا ترشيد القرار السياسي قبل أن يقوموا بعملية وعي منهجي يربط بين الأنظمة ومصالح شعوبها. لهذا فإن الخلافات السياسية بين الأنظمة العربية بعد ذلك قد أدت إلى تنازع المصالح، ولم تستطع الجامعة العربية أن تؤدي الدور المنوط بها لتأسيس المشروع القومي، وظلت الآليات التي اتخذتها عاجزة عن إدراك الغاية ابتداءً بمجلس الدفاع المشترك وانتهاءً بالوحدة الاقتصادية؛ وظل التمايز الطائفي قائماً في كل دولة، فضلاً عن تأسيس بعض الأقطار العربية طائفياً ومذهبياً، مثل لبنان الذي شكله الدستور المقر سنة (1923م)"[1].

---

[1] مشروع القومية العربية إلى أين . د. حسين جمعة . دار الفرقد . دمشق . 2006م ص 21 . 22.

ولعل أكثر ما انشغل فيه المفكرون في عصر النهضة يتركز في أنماط العلاقة بينهم وبين السلطة السياسية والاجتماعية والدينية فأكثروا الحديث عن الوطن والمواطنة والحرية والاستبداد كما وجدناه عند الكواكبي مثلاً الذي رأى أن الاستبداد أس البلاء في كل شيء. ونعتقد بأن هذا المعنى يلاقي مفهوم السلطة الدكتاتورية التي تمارس القهر.

ومن ثم لا نستغرب أن يكون الاستبداد والظلم والعنف والبطش أنساقاً لها.

ثم تحدثوا عن علاقة المثقف بالهوية الثقافية التي تحمل خصائص الأمة في المراجعة العلمية والموضوعية المستمرة للتخلّص من التقليد والتمثل والخوف والتردّد، والاستنساخ والاستلاب و...، وبمعنى آخر حاولوا التخلص من سلطة الثقافة القديمة المترددة والضعيفة، ما جعلهم يتناولون الوصف الظاهري، للوصول إلى الانفتاح على الآخر بوعي خاص يجعل المستقبل أمامهم. لهذا لم ينشغلوا بالتكتيك الآني الذي ينشغل به المثقفون المعاصرون وإنما انشغلوا بالثقافة وتفعيل أثرها في الحياة، ما جعلهم يتناولون فيها قيمة (القومية/العروبة) بمثل ما تحدثوا عن قيمة الوحدة العربية باعتبارها محركاً للمجتمع العربي لا باعتبارها إيديولوجية ذرائعية تستند إلى فكرة ما أو رأى لفرد أو جماعة، أو حزب أو دولة... إن مثقفي عصر النهضة رأوا أن المثقف محارب ناقد لا يقل قدرة عن السياسي الملتزم بالخطاب السياسي ذي البُعد القانوني والأخلاقي في تحصين الهوية العربية والمحافظة عليها، ما جعلهم يدعون إلى تربيتها وفق مناهج مدروسة، وتربية اجتماعية ثقافية عربية إسلامية ترسخ القيم والمبادئ الأخلاقية المرغوب فيها؛ تربية تؤصل الانتماء للوطن والعروبة، وتنمي الفكر الناقد لتنقية كل ما يصل إلينا من ثقافة غربية تسعى إلى إلغاء ثقافتنا؛ أو تسعى إلى إحلال مفاهيم الآخر الغربي في السيطرة وتبني مشاريع مرتبطة بالآخر على نحو ما حلَّ محلَّ المشاريع الوطنية والقومية؛ ومن تلك المشاريع (حلف بغداد، ومشروع سورية الكبرى، ومشروع الهلال الخصيب، ووحدة بلاد النيل؛ ووحدة المشرق العربي، ووحدة المغرب العربي) أو تلك التي تدعو إلى

إحلال اللغة الأمازيغية محل العربية، والفينيقية أو القبطية محل الانتماء إلى العروبة.

فالمثقف في عصر النهضة كان مهموماً بالإصلاح العام الذي يتناول جوانب الحياة والثقافة ومحاربة الأحلاف السياسية الضارة، والمشاريع الاستعمارية التي تهدد الهوية القومية، في الوقت الذي كان معنياً بإيجاد الوطن العربي الممتد من الخليج إلى المحيط، سواء كان في إطار النزعة الشرقية أم النزعة العثمانية، أم نزعة الاستقلال الكامل.

دون أن نهمل ذكر بعض الاتجاهات الفكرية التي اتصفت بصبغة إسلامية ـ غالباً ـ إذ لبس أصحابها " "أول الأمر لباس حركة دينية وسياسية إصلاحية ومتفتحة" مع جمال الدين الأفغاني (1849-1902م) المؤسس الحقيقي لها؛ حركة تنادي بالتجديد وترك التقليد وتبني مواقفها على التحرر من السلطة. إن ترك التقليد يكتسي هنا معنىً خاصاً؛ إنه إلغاء لكل الفكر القومي أياً كان زمنه من عصر حمورابي حتى الجاهلية؛ إذ يعيش أربابه في انفصال حقيقي عن واقعهم للعيش في الماضي الإسلامي وحده،([1]) مشيرين إلى أن الأفغاني كان يستند إلى كثير من أفكار أحمد بن حنبل (ت 231هـ) وابن تيمية (ت 728هـ / 1327م) وابن القيم الجوزية (ت751هـ /1350م). أما التجديد فيعني بناء فهم جديد للدين؛ عقيدة وشريعة، انطلاقاً من الأصول مباشرة، والعمل على تحيينه؛ أي جعله معاصراً لنا وأساساً لنهضتنا.

ومن أهم مفكريه في عصر النهضة ـ أيضاً ـ وما بعده ولي الدين يكن (1873- 1921م)، وسليم سركيس (1867- 1926م)، ومحمد عبده (ت 1905م) ومحمد رشيد رضا (1965 - 1935م) وعلي عبد الرازق (1888 - 1966م) والآلوسي (ت 1342 هـ /

---

[1] انظر نحن والتراث . ص 13.

1924م) ومحمد بن عبد الوهاب (ت 1115 هـ / 1703م) ومحمد علي السنوسي (ت 1276هـ / 1860م)[1].

ولهذا كله نجح المثقفون والأدباء في إسقاط المشاريع التي تريد الهيمنة على الوطن العربي، على حين سقطنا نحن في أوهام ثقافية عديدة أوصلتنا إلى انكسار المشروع القومي الذي صنعوه لنا. وكان المثقفون قبل منتصف القرن العشرين قد عنوا بكل ما أثاره الرواد في عصر النهضة؛ وناقشوا العديد من الأنماط الفكرية والثقافية والفنية والأدبية التي تتركز حول الهوية، وعلاقة المثقف بالسلطة، ومنهم (طه حسين وعبد الله العلايلي وقسطنطين زريق وساطع الحصري وعبد العزيز الدوري وحسين مروة، وإدوارد سعيد ومالك بن نبي، وعلال الفاسي و...) وثمَّرَ هؤلاء المثقفون قيمة العقل وتفاعلوا مع التراث والمعاصرة لتثبيت مكانة المثقف وقدرته على الوقوف في وجه القمع الذي تمارسه سلطة ما على أفراد المجتمع، بيد أن حركة الثقافة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية كانت تسير سيراً بطيئاً، وتقليدياً وربما تعمقت ثقافة التبعية والاستهلاك والاستنساخ لثقافة الآخر ما أدى بنا إلى إنتاج ثقافة عربية مأزومة. فالإنتاج الثقافي ضعيف أو متخلف، أو منقول مستنسخ، والتجارب الوحدوية تجارب شابها الكثير من الأخطاء والمآسي مثل تجربة (الجمهورية العربية المتحدة بين سورية ومصر 1958 - 1961)، واتحاد دول المغرب العربي، واتحاد الجمهوريات العربية بين سورية ومصر وليبيا، والمشروع القومي بين سورية والعراق)، ويبقى اتحاد دول مجلس التعاون أحسن حالاً مما تقدم ذكره حتى الآن. ومهما قيل في هذا الشأن أو ذاك فإن المرء يذهب إلى أن المثقف العربي ما زال يعيش في أزمة حقيقية أكبر مما هي عليه أزمة المجتمع العربي وثقافته، وإن وجد مثقفون مهمومون بقضايا أمتهم وكانوا فوق الأزمات. ولعل ذلك كله قد كوّن علاقات شاذة فيما بين الأوساط الثقافية ولاسيما

---

[1] انظر مشروع القومية العربي إلى أين . د. حسين جمعة . دار الفرقد . دمشق . 2006م ص 24 .25.

النخب منهم، من جهة، وفيما بينهم وبين غيرهم من جهة أخرى بمثل ما نشأت إشكاليات شتى بين هذه النخب والواقع الراهن وفق تحولاته الكبرى.

3 ـ الخاتمة: آفاق ونتائج

أخيراً؛ لعلنا نستطيع القول ـ ونحن نقدم ثلاثة من روّاد الإصلاح في القرن التاسع عشر وهم خير الدين التونسي، ومدحت باشا، وجمال الدين الأفغاني: إن ماهية الإصلاح تختلف باختلاف البلدان العربية؛ وكل منها تتسم بدرجات معينة من الإصلاح، لعلّ أعلاه ما شهدناه في مصر وبلاد الشام، علماً بأن هذا الإصلاح كان يصطبغ، بوجه عام؛ بطابع ديني على نحو ما، وإن اتخذ مفهوم المنهج العقلي، فما انتهى إليه (فرنسيس فتح الله المراش) في كتابه (رحلة باريس 1867م) الصادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لعام (2004م) بتقديم (قاسم وهب) لا يقل قيمة عمّا وصل إليه الطهطاوي وعلي مبارك؛ ومثله كان ابن بجدته من الشام أحمد فارس الشدياق... وجميعهم سخروا أقلامهم لتبديد الأوهام والخرافات، والقضاء على ملامح الظلم والاستبداد الذي ران طويلاً على المشرق العربي، فقد نشدوا التمدن والتقدم والحرية. بمنهج عقلي سديد. ومما قاله فرنسيس مراش في رحلته: "فلما أدركت رشدي وبلغت أشدي دخلت هذا العالم لأتجسسه وأرى كيف يجب اعتباره مني، وعلى أي وجه، وبالنسبة إلى أي مادة؟ فعندما تبصرته كافياً وانتقدته وافياً، تبلبلت إشعاراتي نحوه، وهمت على وجهي، وما عدت أدري ما أعتبر منه، لأنني رأيته سوقاً عظيماً لا حدّ له"[1].

بل هو عالم متقلب يأكل القوي فيه الضعيف[2].

---

[1] انظر رحلة باريس 23.

[2] انظر رحلة باريس 24.

ولهذا حين نجح هؤلاء المفكرون في الموقع الذي نشدُوه لنهوض الأمة وتحررها، فقد أخذنا نسقط فيه.

ولا شيء أدل على ما نقول من توفيقهم بين العقل والدين، ومن ثم اتفاقهم على التوجه الإيماني غير الطائفي والمذهبي؛ باعتبار تكامل الدائرة الثقافية القومية والدينية في تفكيرهم ومنهجهم وسلوكهم. وهذا ما دعانا إلى اختيار الروّاد الثلاثة الذين ينتمون إلى روح العروبة بعد أن صهرهم الإسلام بقيمه وعقيدته، فكانوا روّاداً من روّاد النهضة العربية، على الرغم من أنهم في الأصل لا ينتمون إلى الجنس العربي.

وقد اتفق هؤلاء الروّاد على الانشغال بتحرير الإنسان العربي من جهله وتخلفه وفقره، وعبوديته لينطلق إلى آفاق العلم والتقدم والسعادة والحرية... ما يعني أنهم قد ثمَّنوا فكرة التقدم والانعتاق في ضوء المعرفة العقلية الإيمانية، المتعانقة بالحرية... وبخاصة أن مفكري عصر النهضة قد مارسوا فعل التواصل الحضاري في إطار من التفاعل والانفتاح الصحي، لا الانفتاح المرضي، إذ أخذوا بأسباب الحضارة لا بجزئياتها أو تفصيلاتها. فإذا جالوا في باريس ـ مثلاً ـ فلم يكن جولانهم على أماكن العبث واللهو ـ كحالنا هذه الأيام ـ وإنما كانوا مشغوفين بنهل العلوم والمعارف وزيارة المتاحف والمسارح. ومما أورده فرنسيس مراش في هذا المقام قوله: "ومسارح ومشاهد متقنة الأساليب والتراتيب؛ ينشرون فيها لنزاهة الناس ما دُفن في قبر الزمان من المواقع، ويستحضرون ما طار على أجنحة الأجيال من الحوادث التي لم يعد لها تغريد سوى في وكنات التاريخ، جامعين إلى دست واحد ما تفرقت قطعه في رقاع السنين. وهكذا يُحلّون هذه الاستحضارات والاستظهارات بقلائد الآداب وفصاحة اللغة، ويزحمونها بآلات الطرب وحسن الصوت، بحيث أن المشاهد لا يعود يدري بأي حاسة يستقبل وقوع الطرب؛ أبعينه أم أذنه؟! فيرجع حاملاً

في دماغه أنهاراً من الأنوار الأدبية، وفي أعينه انبهاراً من الأضواء الطبيعية، وفي قلبه أنهاراً من ينابيع الطرب والحبور"[1].

وفي هذا السياق يمكن أن نعرض لما قاله المفكر العربي فؤاد زكريا: "إنه أمر يدعو إلى الأسى العميق أن يجد المثقف العربي نفسه في أواخر العشرين مضطراً أن يخوض معركة كاد المفكرون العرب في أواخر القرن التاسع عشر أن يحسموها نهائياً لصالح العقل والتقدم"[2].

لذلك كله يأتي كتابنا الجديد من سلسلة الكتاب الشهري ليتوقف عند زعماء حركة الإصلاح في عصر النهضة؛ من أجل تثمير العمل العقلي المتكامل بالإيمان والعقيدة لترشيد حياتنا وثقافتنا.. فأي فعل لابدّ له من إخضاعه لمنطق الفكر النقدي، ولآليات المنهج الموضوعي العلمي؛ وإلا ستبقى الأزمة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والتقنية كامنة في واقعنا العربي إلى مدى غير منظور...

---

[1] رحلة باريس . ص42.

[2] خطاب إلى العقل العربي . (كتاب العربي: سلسلة قضايا تصدرها مجلة العربي) . الكتاب السابع عشر . 15 تشرين الأول/ أكتوبر . 1987م . ص93.

السيد جمال الدين الأفغاني
(1254 - 1314هـ)
(1839 - 1897م)

لئن كان محمد بن عبد الوهاب يرمى إلى إصلاح العقيدة، ومدحت باشا يرمى إلى إصلاح الحكومة والإدارة فالسيد جمال الدين يرمى إلى إصلاح العقول والنفوس ـ أولاً ـ ثم إصلاح الحكومة ـ ثانياً ـ، وربط ذلك بالدين.

(مدحت) يرى إصلاح الشعب من طريق إصلاح الحكومة، وجمال الدين يرى إصلاح الحكومة من طريق إصلاح الشعب. مدحت يقول: إن الحكومة راع وإذا صَلَح الراعي صلحت الرعية، والغاية (الدستور) فإذا وضع ونفذ فالخير كل الخير للأمة. ويقول جمال الدين: "إن القوة النيابية لأي أمة لا تكون لها قيمة حقيقية إلا إذا نبعت من نفس الأمة، وأي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك أو أمير، أو قوة أجنبية محركة له، فهو مجلس موهوم موقوف على إرادة من أحدثه" فالعقول والنفوس أولاً؛ والحكومة ثانياً.

ماذا تنفع الحكومة الصالحة إذا كان الشعب غير صالح؟ لقد علمنا التاريخ أن الحكومة لا تستقيم إلا إذا كان في الأمة رأي عام

يخيفها، ويلزمها أداء واجباتها، والوقوف عند حدها، فإذا لم يكن ذلك فالطبيعة البشرية تملي على الحكام أن يستأثروا بالمنافع؛ وغاية ما يتوقع من الحكومة الصالحة غير المؤسسة على قوة الأمة ويقظتها أن تكون موقوتة بوقتها، فإذا زالت حل محلها من لا يصلحُ، إذ لا شأن للأمة في اختيارها، ولا رقابة لها على أعمالها.

يقول سنة 1296هـ: "هَبُوا أن مجلساً نيابياً أنشئ فستجدون أن حزب الشِّمال لا أثر له، وسيفر الأعضاء كلهم إلى حزب اليمين، وسيكونون كلهم آلة صماء... وسيرى كل عضو أن الدفاع عن الوطن، ومناقشة الحاكم الحساب قلة أدب؛ وسوء تدبر، وقلة حنكة، وتهور". لا. لا. العقول والنفوس هي المقدمة، والحكومة الصالحة هي النتيجة.

...

أفغاني الأصل، شريف النسب، ينتمي إلى الحسن بن علي (ولشرف النسب في هذه البلاد حرمة وإجلال يفوقان ما في غيرها من الأقطار). جمع إلى شرف النسب عزة السيادة، فقد كان أهل بيته سادة على عمل من أعمال أفغان[1].

ولكن ما لنا ولهذا كله، فقد تُنبت النبتة الطيبة في الأرض السَّبِخة، والنبتة الفاسدة في الأرض الصالحة، فإذا نبتت النبتة الصالحة في الأرض الصالحة اكتفينا بالتسجيل. فأسرة جمال الدين لم تنبت إلا جمال الدين، وأسرة محمد عبده لم تنبت إلا محمد عبده. وما أكثر الأسر التي تشبه أسرتيهما أو تفوقهما، ومع هذا لم تنبت شيئاً، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

تعلم ـ كما يتعلم شباب زمانه في بلاده ـ الفارسية والعربية على طريقة تشبه الطريقة الأزهرية، لا تمتاز عنها إلا بدراسته الواسعة في الفلسفة الإسلامية والتصوف، كما هي عادة الفرس إلى اليوم، فكان

---

[1] أعمال أفغان: أقطارها وما تحت حكمها من البلاد.

ذلك نواة ثقافية، ودرس في الهند الرياضية العصرية، وساح سياحة طويلة في الأقطار الإسلامية إلى مكة، فأكسبه ذلك تجارب علمية واسعة، وخبرة بحياة الشرق. ووقعت بلاده في منازعات سياسية على من يتولى الملك، فانغمس فيها وتشيَّع لجانب منها وقام منه مقام الوزير، وانتصر وانهزم، ولمس تدخل الدول فعلمه ذلك كله السياسة وخصوماتها، ودهاءها وألاعيبها.

وتعلم الفرنسية وهو كبير. أنى بمن يعلمه الحروف الهجائية، ثم انفرد بتعليم نفسه نحو ثلاثة أشهر تحفظ من مفرداتها، حتى استطاع أن يقرأ من كتبها ويترجم منها، ثم توسع في ذلك في أثناء إقامته بباريس، ومع هذا فلم يحذقها كل الحذق.

كم من الناس علموا أكثر مما علم، وقرأوا أكثر مما قرأ، ورطنوا أكثر مما رطن، ولكن لم يكن لأحد منهم شخصية كشخصيته: ذكاء متوقد، وبصيرة نافذة، وتوليد للأفكار والمعاني من كل ما يقع تحت سمعه وبصره، واستقصاء للفكرة حتى لا يدع فيها قولا لقائل "له سلطة على دقائق المعاني وتحديدها، وإبرازها في صورها اللائقة بها، كأن كل معنى قد خلق هل؛ وله قوة في حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش، فنظرة منه تفكك عقدها. كل موضوع يلقى إليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه، فيأتي على أطرافه، ويحيط بجميع أكنافه، ويكشف ستر الغموض عنه، فيظهر المستور منه. وإذا تكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها؛ ثم له في باب الشعريات قدرة على الاختراع، كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع، له لسنٌ[1] في الجدل، وحذق في صناعة ا لحجة لا يلحقه فيها أحد إلا أن يكون في الناس من لا نعرفه..."

"أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة في صفاته، وله حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه، فينقلب

---

[1] اللسن: الفصاحة.

الحلم إلى غضب، تنقضّ منه الشهب، فبينما هو حليم أوّاب[1]، إذ هو أسد وثاب. وهو كريم يبذل ما بيده، قوى الاعتماد على الله، لا يبالي ما تأتي به صروف الدهر.

"أما خَلقه فهو يمثل لناظره عربيًّاً محضاً من أهالي الحرمين، فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين من سَكَنَة الحجاز. رَبْعَة[2] في طوله، وسط في بنيته، قمحيّ في لونه، عصبي دموي في مزاجه، عظيم الرأس في اعتدال، عريض الجبهة في تناسب، واسع العينين، عظيم الأحداق، ضخم الوجنات، رحب الصدر، جليل المنظر، هشّ بشّ عند اللقاء، قد وفّاه الله من كمال خَلقه ما ينطق على كمال خُلقه[3]".

فهم رسالته وما تتطلب من جهاد، وما تقتضيه من أعباء، فلم يرتبط بأسرة ولم يستعبده مال، وعاش لأفكاره ومبادئه، تكفيه أكلة واحدة في اليوم كله، وإن أفرط في الشاي والتدخين. أعد نفسه للنفي في كل لحظة، فما فيه لا يتعبه إلا شخصه. ملابسه على جسمه، وكتبه في صدره، وما يشغله في رأسه، وآلامه في قلبه.

ولقد طوّف في فارس والهند والحجاز والآستانة، وأقام فيها. ولكن لعل أخصب زمنه، وأنفع أيامه، وأصلح غرسه، ما كان في مصر مدة إقامته بها من أول محرم سنة 1288 إلى سنة 1296هـ (مارس سنة 1871 ـ أغسطس سنة 1879). ثماني سنين كانت من خير السنين بركة على مصر، وعلى العالم الشرقي، لا بما أفاد من جمال مظهرها وحسن رونقها وسعادة أهلها، ولكن لأنه فيها كان يدفن في الأرض بذوراً تتهيأ في الخفاء للنماء، وتستعد للظهور ثم

---

[1] أواب: راجع إلى الاستغفار.

[2] ربعة: متوسط القامة.

[3] من وصف الشيخ محمد عبده له.

الإزهار، فما أتى بعدها من تعشق للحرية وجهاد في سبيلها فهذا أصلها، وإن وجدت بجانبها عوامل أخرى ساعدت عليها وزادت في نموّها.

لقد جرّب "السيد" أن يبذُر بذوراً في فارس والآستانة فلم تنبت، ثم جربها في مصر فأنبتت.

كان من حسنات رياض باشا أن أُعجِب "بالسيد" ورأى فيه عالماً لا من طراز من عرف من العلماء، يعرف الدين ويعرف الدنيا، ويجيد الفهم ويجيد القول، فتمكن من البقاء في مصر وسعى عند الحكومة فقررت له عشرة جنيهات شهرياً.

كانت هذه السنون الثماني من أشق السنين على مصر، إذا كان حالها حال أسرة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فلم تكتف بدخلها الذي يسد حاجتها، فاستدانت لرفاهيتها، حتى إذا بلغت الغاية في الدين أخذ الدائنون يحجرون عليها ويتدخلون في شؤونها، ويشرفون على مصادرها ومواردها، ولا يتركون لها شيئاً من حرية التصرف؛ فإذا الأسرة بائسة بعد نعيم، وشقية بعد سعادة، وإذا هي مغلولة الأيدي والأرجل والأعناق، تحاول الخلاف فلا تجده، وتتلمس طريق الحرية فلا تهتدي إليه.

فقد توالت القروض التي اقترضتها. ففي المدة الواقعة بين سنة 1864 وسنة 1875 بلغت الديون نحو خمسة وتسعين مليوناً من الجنيهات، فجاءت بَعْثة كيف Cave سنة 1875 لفحص مالية مصر، واقترحت لضرورة إصلاحها إنشاء مصلحة للرقابة على ماليتها، وأن يخضع الخديوي لمشورتها، ولا يعقد قرضاً إلا بموافقتها.

وأنشئ صندوق الدين سنة 1876 يتسلم المبالغ المخصصة للديون من المصالح المحلية، فكانت حكومة أجنبية داخل الحكومة المصرية. وأنشئ نظام الرقابة الثنائية في هذه السنة أيضاً، وكان من مقتضاه أن يتولى الرقابة على المالية المصرية مراقبان: أحدهما إنجليزي لمراقبة الإيرادات العامة للحكومة، والآخر فرنسي لمراقبة المصروفات. وأنشئت لجنة مختلطة لإدارة السكك الحديدية وميناء

الإسكندرية. وجاءت لجنة تحقيق عليا أوروبية سنة 1878 لمراعاة مصالح الدائنين الأجانب، وتدبير المال اللازم لوفاء الأقساط المطلوبة لهم.

وتطورت الرقابة الثنائية إلى تأليف وزارة مختلطة برياسة نوبار باشا يدخلها وزيران أوروبيان أحدهما إنجليزي والآخر فرنسي لوزارة الأشغال.

ولا شك أن المال عصب الحياة، فالمشرف عليه مشرف على كل شيء. فتوفير المال لأداء الديون يتطلب الإشراف على جميع الإدارات التي تُغِل المال، وهذه الإدارات تحصل المال من الفلاح، وتقول إنه لابد أن يكون آمناً على ماله، مهيأة له وسائل إصلاح زراعته، يُعَامَلُ بالعدل في تحصيل الضرائب منه، فلابد من الإشراف على هذه الشؤون كلها من أجل المال. وهكذا من أشرف على المال أشرف على كل شيء.

كل هذا حدث مدة إقامة "جمال الدين" في مصر، وكان من طبعه الانغماس في السياسة، ونمى هذا الطبع فيه نشأته في بيت حكم، وانغماسه فيها أيام تنازع الأسرة المالكة في الأفغان، فكانت هذه الأحداث المصرية حافزة له على أن يعيد ما بدأ به من الاشتغال بالسياسة، وحافزة للناس في مصر على أن يجاوبوا حركته.

***

كان نشاطه التعليمي ذا شُعبتين. دروس علمية منظمة يلقيها في بيته في "خان الخليلي"، ودروس عملية يلقيها بين زوّاره في بيته وفي بيوت العظماء حين يردُّ زيارتهم، وفي "قهوة البوستة" بالقرب من "العتبة الخضراء"، وحيثما كان في المجتمعات.

فأما دروسه في بيته، فكان يلقيها على طائفة من مجاوري الأزهر وبعض علمائه، أمثال الشيخ محمد عبده، والشيخ عبد الكريم سَلْمَان، والشيخ إبراهيم اللَّقَاني، والشيخ سعد زغلول والشيخ إبراهيم الهلباوي.

كان أكثر الكتب التي قرأها لهؤلاء وأمثالهم كتب منطق وفلسفة وتصوف وهيئة، مثل كتاب الزوراء للدوراني في التصوف، وشرح القطب على الشمسية في المنطق، والهداية، والإشارات، وحكمة العين، وحكمه الإشراق في الفلسفة وتذكِرَة الطوسي في علم الهيئة القديمة، وكتاب آخر في علم الهيئة الجديدة.

هي كتب فلسفة على نحو ما يتصور الفلاسفة القدماء وفي العصور الوسطى؛ فكانوا يعدون المنطق مقدمة الفلسفة أو مدخلها، ومن فروعها الإلهيات والطبيعة والفلك والطب وما إلى ذلك.

ويظهر لي أن هذه الكتب لم تكن لها قيمة في ذاتها؛ فقد كان الشيخ حسن الطويل مثلاً يقرأ بعض هذه الكتب في الأزهر ولم يؤثر أثره إنما كانت قيمتها في أن كل فصل من فصولها، أو جملة من جملها، كان تُكَأَة يستند إليها الشيخ في شرح أفكاره وآرائه، والتبسُّط في مناحي الفكر، والتطبيق على الحياة الواقعة، ونظرته إلى العالم كوَحدة، مازجاً التصوف بالفلسفة وبالهيئة وبغير ذلك. وهذا هو ما أقنع الشيخ محمد عبده من الشيخ وطمأن نفسه إذا قال: إنه "بعد حضوره في الأزهر سنين ملّ الدروس المعتادة، وصارت نفسه تطلب شيئاً جديداً، وتميل إلى العلوم العقلية، وكان الشيخ حسن الطويل ممتازاً في الأزهر بعلم المنطق، فحضره عليه ولكن لم يكن يشفى ما في نفسه، بل كانت تتشوَّفُ[1] دائماً إلى علم غير موجود... وقرأ الشيخ حسن الطويل شيئاً من الفلسفة، ولكن لم يكن يجزم بأن المعنى كذا، بل كان درسه احتمالات، حتى جاء السيد جمال الدين فوجد عنده طلبته وأقصى أمنيته.

فهذه الكتب التي قرأها إنما قيمتها في نفس جمال الدين، والدنيا تتلون بلون منظار الرائي، والطبيعة كلها مفتوحة أمام أعين الناس، ولكن لا يفهمها إلا القليل.

---

[1] تتشوف: تتطلع.

ما هذا الشيء الجديد الذي وجده "محمد عبده" عند "جمال الدين" فاطمأن به واهتدت نفسه إليه؟ هو ما عند جمال الدين من أصول كلِّية هي عماد الفلسفة، يرجع إليها في كل ما يقرأ من صفحات الكتب، وهي الحَكَمُ في صحة ما يُصح، وبطلان ما يُبْطل، ثم شخصية قوية تجزم في الحكم ولا تتردد تردد الشيخ حسن الطويل، ثم ربط جزئيات الحياة العلمية والعملية كلها برباط واحد يفتح النوافذ بعضها على بعض حتى تتألف منها وحدة؛ فالتصوف، والفلسفة، والدنيا العامة، ودنيا الشخص، هذه كلها لا يصح أن يكون كل منها حجرة مغلقة على نفسها، بل لابد أن تتقابل وتتناغم، وتؤلف دوراً موسيقياً واحداً، فإذا تم هذا صح نظر الإنسان وزال عنه كثير من الشك المؤلم والحيرة المضنية، وَبتّ[1] فيما ينفع وما يضر، وما يعمل وما يَدَع، ووضحت أمامه الأعلام، واستنارت السبل؛ أما جملة تصح وجملة لا تصح، ومؤلف أخطأ ومؤلف أصاب، ومنطق في الكتاب ولا منطق في العمل، ونظرية في التصوف تقضها نظرية في الحكمة، وأقوال في الزهد يسلم بها في حينها، وأقوال في الحثّ على الانغماس في الحياة يسلم بها في حينها أيضاً، فهذه كلها نظرة البُدائيين الذين لا يستطيعون أن ينظروا إلا أن السطح دون الأعماق، والأعراض دون الجوهر، والأشكال دون الحقيقة.

وفوق هذا كله كان يأخذ بيد تلاميذه فيرفعهم إلى مستوى يسيطرون فيه على الكِتَاب، ولا يستعبدهم الكتاب، ويسمُون عن قيود الألفاظ والجمل إلى معرفة الحقيقة في ذاتها، ولو خالفت الألفاظ والجمل.

وكانت طريقته في التدريس عكس طريقة الشيخ محمد عبده. كان جمال الدين يحدّد موضوع الدروس فقط من الكتاب، ثم يُفيض في شرح الموضوع من عنده حتى يحيط به من جميع أطرافه، وبعد ذلك يقرأ نص الكتاب فإذا هو واضح ظاهر بينٌ فيه موضع الخطأ

---

[1] بت: مضى الحكم.

والصواب. أما الشيخ محمد عبده، فكان يقرأ النص أولاً ويتفهمه ويفهّمه، ثم يفيض في التعليق عليه وفي بسط الموضوع من عنده.

هذه هي مدرسته النظامية في بيته.

– 2 –

أما مدرسته الثانية غير النظامية فكانت أكبر أثراً وأعمّ نفعاً، وهي التي كان يتلقى عليه فيها زوَّاره في بيته، وعظماء الرجال عند زيارته لهم في بيوتهم، وخاصّة المفكرين والمثقفين عند تحلقهم حوله في "قهوة البوسطة"، وجمهور الناس عد اجتماعهم به في المناسبات.

في هذه المدرسة تلقى دروسه أمثال: محمود سامي البارودي، وعبد السلام المويلحي، وأخيه إبراهيم المويلحي. ومن الشباب أمثال: محمد عبده، وإبراهيم اللقاني، وسعد زغلول، وعلى مظهر، وسليم نقاش، وأديب إسحاق، وغيرهم.

وفي هذه المدرسة حول "السيد" مجرى الأدب ونقله من حال إلى حال.

كان الأدب عبد الأرستقراطية، لا هم له إلا مدح الملوك والأمراء، والتغنّي بأفعالهم وصفاتهم مهما بلغ من ظلمهم؛ لكل حاكم سيد الوجود في زمانه، آت بالمعجزات في أعماله، معصوم من الخطأ فيما يأتي به؛ يبتَزّ[1] مال الناس غصباً، فلا يُلام على ما غَصب، ولكن يُمدح على ما أنفق؛ ويقتل من شاءُ يسأل عَمَّنْ قتل، ولكن يُشاد بفضله إذا عفا الفن والأدب والشعر والنثر موسيقى لطَرَبِه، وبهلوان لتسليته، وعبيد مُسَخرة لنهش أعدائه، ومدح أوليائه. الأديب الصغير مَدَّاح للغني الصغير والأديب الكبير مدّاح للأمير الكبير ـ فأتى جمال الدين فسخّر الأدب في خدمة الشعب؛ يطالب بحقوقه، ويدفع الظلمَ عنه، ويهاجم من اعتدى عليه كائناً من كان؛ يبين للناس سوء حالهم ومواضع بؤسهم؛ ويبصرهم بمن كان سبب فقرهم، ويحرضهم أن

---

[1] يبتزّ: يسلب.

يخرجوا من الظلمات إلى النور، وألا يخشَوا بأس الحاكم، فليست قوته إلا بهم: ولا غناه إلا منهم، وأن يلحّوا في طلب حقوقهم المغصوبة، وسعادتهم المسلوبة. فخرج على الناس بأدب جديد ينظر للشعب أكثر مما ينظر إلى الحاكم، وينشد الحرية، وتخلع العبودية، ويفيض في حقوق الناس وواجبات الحاكم، ويجعل من الأديب مشرفاً على الأمراء، لا سائلاً يمد يده للأغنياء. وهذه نغمة جديدة لم يعرفها المسلمون منذ عهد الاستبداد.

قال الشيخ محمد عبده في وصف حال مصر قبل مجيء (جمال الدين): "إن أهالي مصر قبل سنة 1293هـ كانوا يرون شؤونهم العامة بل والخاصة ملكاً لحاكمهم الأعلى ومن يستنيبه عنه في تدبير أمورهم، يتصرف فيها حسب إرادته؛ ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله، أو خيانته وظلمه، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له أن يبديه في إدارة بلاده، أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحاً لأمته؛ ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مصرَّفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه عليهم. وكانوا في غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء كانت إسلامية أو أوروبية ـ ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوربا وتعلم فيها من عهد محمد علي باشا الكبير إلى ذلك التاريخ، وذهاب العدد الكثير منهم إلى ما جاورهم من البلاد الإسلامية أيام محمد علي باشا الكبير وإبراهيم باشا، ولم يشعر الأهالي بشيء من ثمرات تلك الأسفار، ولا فوائد تلك المعارف، ومع أن إسماعيل أبدع مجلس الشورى في مصر سنة 1283، وكان من حقه أن يعلِّم الأهالي أن لهم شأناً في مصالح بلادهم، وأن لهم رأياً يرجع إليه فيها، لم يحسَّ أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن له ذلك الحق الذي يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية، لأن مُبدع المجلس قيده في النظام وفي العمل، ولو حدَّث إنساناً فكرُه السليم بأن هناك وجهةَ خير غير التي يوجه إليها الحاكم لما أمكنه ذلك؛ فإن بجانب كل لفظ نفياً عن الوطن، أو إزهاقاً للروح، أو تجريداً من المال".

كان الأدب ظلاً لهذا الموقف، وصورة صادقة لهذا المنظر؛ فأدباء مصر أمثال السيد علي أبو النصر. والشيخ علي الليثي، وعبد الله باشا فكري، تتصفح آثارهم فماذا ترى؟ غَزَلاً في حبيب أو رسالة إلى صديق، أو مدحاً لأمير، أو استعطافاً له، أو اعتذاراً إليه، أو وصف سفينة، أو شكراً على هدية. أما مصر وحالة شعبها، وبؤس قومها، وظلم حكامها، وحقوق الناس، وواجبات الحكومة فلا تُعثر منها على شيء.

فلما جاء جمال الدين قلب هذا الوضع، وفتح للناس منافذ للقول، وسلك في ذلك مسالك مختلفة:

1 ـ كوّن جماعة من الكهول والشبان حبَّب إليهم الكتابة ورسم لهم خُطتها، وأوحى إليهم بالمعاني الجديدة التي يكتبونها، وشجعهم على إنشاء الجرائد يكتب فيها ويستكتب منهم من توسَّم فيه المقدرة. مثال ذلك أنه شجع "أديب إسحق" ـ بعد أن اتصل به اتصالاً وثيقاً وتَلْمذَ له طويلاً ـ على أن ينشئ جريدة اسمها "مصر"، وكان جمال الدين يرسم له خطة السير فيها، ويكتب بنفسه بعض مقالاتها باسم مستعار هو "مظهر بن وضاح"، ثم عز إليه بالانتقال إلى الاسكندرية، وأنشأ بها صحيفة يومية اسمها "النجارة". وكان جمال الدين يستكتب لهاتين الصفحتين الشيخ محمد عبده، وإبراهيم اللقاني، وأمثالها؛ هذا إلى ما يكتبه جمال الدين بنفسه. وكان مما كتبه مقالان أحدهما في الحكومات الشرقية وأنواعها، والثاني سماه "روح البيان في الإنجليز والأفغان" كان لهما صدى بعيد. ولقيت الصحيفتان رواجاً كبيراً، ولفتنا إليهما الأنظار بروحهما الجديدة، ثم أغلقهما (رياض باشا).

وكذلك فعل في توجيه الكتاب إلى الكتابة في الوقائع المصرية وأمثالها، فربَّى بذلك طائفة من الكتاب تُحسن الكتابة؛ وتحسن اختيار الموضوعات التي تمس حياة الأمة في صميمها. فيكتب (أديب إسحق) ـ مثلاً ـ تحت عنوان "أوربا والشرق": "قُضي على المشرق أن يهبط بعد الارتفاع، ويَذلَّ بعد الامتناع، ويكون هدفاً لسهام المطامع والمطالب، تعبث به أيدي الأجانب من كل جانب..."الخ.

ويقول الشيخ محمد عبده: "إن الحاكم ـ وإن وجبت طاعته ـ هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم، ولا يردّه عن خطئه، ولا يقف طغيان شهوته، إلا نصحُ الأمة له بالقول والفعل".

ويتصل به الكاتب الإسرائيلي الفكه "يعقوب صَنوع" فينشئ مجلة هزلية اسمها "أبو نضارة" ينتقد فيها سياسة إسماعيل باشا.

كل هذا كان النواة الأولى في الشرق للصحافة الشرقية والكتَّاب الذين يعالجون شؤون الوطن وحالة الشعوب.

وفي الحق أن الظروف التي أحاطت بجمال الدين كانت مساعدة على ذلك؛ فالحال في مصر هي كما وصفنا من قبل، والنفوس جزعة من المراقبة الثنائية ونحوها. وإسماعيل نفسه يشجع نقد التدخين الأجنبي وإن لم يشجع نقد شخصيته، فكان يسره مقالات أمثال "الوقائع المصرية" و"مصر" و"التجارة" ولا يسره أمثال "أبو نضارة" فكان الأمر أن البلاد أصبحت مستودع (بنزين) وجمال الدين (عُود ثقاب)، فلما أشعله اشتعلت البلاد ولولا هذه الظروف لخابت دعوته في مصر كما خابت في فارس والآستانة.

2 ـ ومسلك آخر سلكه جمال الدين في مدرسته الشعبية، وهو أحاديثه التي كان ينثرها هنا وهناك في المُقْهَى، وفي المحافل، وفي بيوت الزيارة. وكان رحمه الله قليل الاحتفال بالأكل، قليل النوم، كثير السهر قويّ الشهوة للكلام تواتيه المعاني ويطاوعه اللسان. فكان يجد مادة للكلام في كل شيء: في "السيجارة" يشعلها، وفي أي منظر يراه، وفي الطفل يسأله فيجب أولاً يجيب، وفي حادثة زواج أو حادثة طلاق. وهكذا يستطيع أن يخلق أمتعَ الحديث من الشيء العظيم والشيء التافه ومن لا شيء. وكانت مصر ـ بحمد الله ملأى بالأحداث في هذا الزمان، فكانت تغنيه أحداثها العظام عن خلق الأحاديث المرتجلة، وكان له القدرة على أن يلهب مستمعيه، فلا يزال يروّح على الفحم حتى يلهبه، فإذا جليسه يرى بعد الجلسة راحة في السير لا

في الركوب، وفي العمل لا في السكون، كأنه يريد أن يُجاوب جسمُه قلبه، ويُناغم[1] عملُه نفسَه.

وكان له مذهب في الكلام يتفق وشهوته؛ وهو أن يحدث من يفهم ومن لا يفهم، من يستعدّ ومن لا يستعدّ، كالسحاب ينزل الغيث فتنتفع به الأرض الصالحة وتسوء به الأرض الفاسدة، ولا عيبَ على السحاب. يقول الشيخ محمد عبده في هذا: "كان السيد جمال الدين يلقى الحكمة لمريدها وغير مريدها، ومن خواصه أنه يجذب مخاطبه إلى ما يريد، وإن لم يكن من أهله، وكنت أحسُده على ذلك، لأنني تؤثر فيَّ حالة المجلس والوقت، فلا تتوجّه نفسي للكلام إلا إذا رأيت له محلاً قابلاً واستعداداً ظاهراً".

وهذا هو السر في وجود مدرسة في مصر عجيبة تحسن السمر والحديث، وتشقيق الكلام وحسن الاستطراد، وتأخذ على السامع لُبَّه، من أمثال محمد عبده، وسعد زغلول، والهلباوي، ولطفي السيد، وكلهم من تلاميذه في هذا الباب.

قال سليم بك العنحوري: "كان من دَيْدَن[2] "جمال الدين" أن يقطع بياض نهاره في داره حتى إذا جنَّ الظلام خرج متوكئاً على عصاه إلى مقهىً قرب الأزبكية، وجلس في صدر فئة تتألف حوله على هيئة نصف دائرة، ينتظم في سمطها[3] اللغوي والشاعر والمنطقي والطبيب والكيمياوي والتاريخي والجغرافي والمهندس والطبيعي، فيتسابقون إلى إلقاء أدق المسائل عليه، وبسط أعْوَص الأحاجي[4] لديه فيحل عُقد إشكالها فرداً فرداً، ويفتح أغلاق[1]

---

[1] يناغمه: أي يساوقه في نغمته.

[2] الديدن: العادة.

[3] السمط: العقد.

[4] الأحاجي: الألغاز.

طلاسِمَها ورموزها واحداً واحداً، بلسان عربي مبين لا يتعلم ولا يتردد، بل يتدفق كالسيل من قريحة لا تعرف الكلالَ، فيدهشُ السامعين، ويُفْحم السائلين، ويُبكم المعترضين، ولا يبرح هذا شأنَه حتى يشتعل رأس الليل شيباً،... فيقُفل إلى داره بعد أن ينقُد صاحبَ المُقْهَى كل ما يترتب له في ذمة الداخلين في عِداد ذلك الجمع الأنيق".

ويقول في موضع آخر: "إنه في خلال سنة 1878، زاد مركزه خطراً لأنه تدخل في السياسة، وأخذ يقرب منه العوام، ويقول لهم في أثناء كلامه ما معناه: إنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد، ورُبيتم في حِجر الاستبداد، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم، وأنتم تحملون عِبء نير[2] الفاتحين، وتَعْنونَ[3] لوطأة الغزاة الظالمين؛ تَسومُكم حكوماتكم الحَيف والجَوْر، وتُنزل بكم الخَسْفَ والذل، وأنتم صابرون، بل راضون، وتستنزف قوَام حياتكم ـ التي تجمعت بما يتحلَّب من عرق جباهكم ـ بالعصا والمقرعة والسوط، وأنتم صامتون. فلو كان في عروقكم دم فيه كُريَّات حيوية، وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية، لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة تناوَبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس؛ ثم العرب والأكراد والمماليك الخ؛ وكلهم يشق جلودكم بِمِبضع نَهَمِهِ، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة، لا حسّ لكم ولا صوت.

"انظروا أهرام مصر، وهياكل منفيس، وآثار طيبة، ومشاهد سيوه، وحصون دمياط، فهي شاهدة بمَنَعة آبائكم، وعزة أجدادكم.

"هُبّوا من غفلتكم! اصحوا من سكرتكم! عيشوا كباقي الأمم أحراراً سعداء".

---

[1] الأغلاق: الأقفال.

[2] النير: خشبة توضح على عنقي الثورين يقرنان بها ويساقان.

[3] تعنون: تخضعون.

"ومنذ ذلك الحين طارت شرارة الثورة العرابية".

بهذا انقلب "الشيخ" من معلم في حجرة إلى معلم أمة: يخاطب العامة والخاصة، ورجل الشارع والمتربع دَسْت الوزارة.

ومن تمام بَرْنَامجِه في هذا الباب أن انضم إلى المحفل الماسوني الاسكتلندي لأنه يضم كثيراً من جليه القوم، لعله بذلك يتمكن من إيصال أفكاره إليهم، ويضم طائفة من المصريين والأجانب، فلعل حرية القول فيه تكون أتم؛ ولكن ما دخلَ "السيد" فيه حتى ثارت ثائرته، وأخذ يهاجمه في تصرفه وينقده بخطبه المتوالية. غاظه من المحفل أنه وجد أعضاءه لا يحبون أن يتكلموا في السياسة فقال: "أول ما شوقني للعمل في "بناية الأحرار" عنوان كبير وراء دَكِّ صروح الظلم ـ تشييد معالم العدل المطلق"، ولكن كنت أنتظر أن أسمع وأرى في مصر كل غريبة وعجيبة، ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل من بين اسطوانتي المحافل الماسونية!

إذا لم تتدخل الماسونية في سياسة الكون، وفيها كل بناء حر، وإذا كانت آلات البناء التي بيدها لا تستعمل لهدم القديم وتشييد معالم حرية صحيحة وإخاء ومساواة، وإذا كانت لا تدك صروح الظلم والعتوّ والجور، فلا حملت يد الأحرار مطرقة، ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة".

وهكذا نقدها في عدم تدخلها في السياسة، وتنازع أعضائها على الرياسة، ورغبتهم في إغماض أعينهم على ما يقع على الأمة من ظلم.

وأخيراً استقال من هذا المحفل، وأنشأ محفلاً آخر تابعاً للشرق الفرنسي؛ وسرعان ما بلغ أعضاؤه أكثر من ثلثمائة عضو من نخبة المفكرين والناهضين المصريين، وكان في هذا المحفل مطلق الحرية، نظم شُعَبه للأعمال المختلفة؛ فشعبة للحقانية، وأخرى للمالية، وثالثة للأشغال، ورابعة للجهادية. وهكذا لكل وزارة ومصلحة شُعبة، وتدرس كل شعبة شئون وزارتها أو مصلحتها، وتعرف ما يقع من الظلم ووجوه الإصلاح فيها، ثم كل شعبة تتصل بالوزير المختص

وتبلغه رغباتها في أسلوب حازم صريح. فكان لذلك هزّة في الأندية والمجتمعات[1].

وهكذا اتسعت دائرة نفوذه وأعماله، لقد بدأ يدرّس في حجرة، ثم أخذ يسيطر على عقول مستمعيه في "قهوة"، ثم هاهو ذا يريد أن يسيطر على الوزارات ومصالح الحكومة بمحفلِه. وكان يدرس في بيته كتب الفلسفة والحكمة، فإذا به في مجتمعاته ومنتدياته يشرح حالة الأمة الاجتماعية، ويبين حقوقها وواجباتها، ثم إذا به آخر الأمر يضع يده في صميم الحياة السياسية.

خِلْقة فيه ظهرت منذ كان شابّاً يلعب دوره في نصرة أميرٍ على أمير في ولاية الأفغان، لا يقنع حتى يتزعم، ولا يهدأ حتى يضع يده على الأزرار التي تصرف الأمور، ولكنها أزرار مشحونة بالكهرباء مثيرة للاضطراب، وهو لا يعبأ بها ولكنها على رغمه تنال منه.

ماذا كان يريد السيد جمال الدين في مصر؟

يريد في درسه النظامي توسيع عقول الطلبة، وتفتيح آفاق جديدة في فهم العالم، وتعليم الحرية في البحث، وإيجاد شخصيات من الطلبة تبحث وتنقد وتحكم؛ خالفت النص او وافقته، خالفت المعروف المألوف أو وافقته.

ويريد في درسه العام أن يتحرر الشعب من العبودية للحكام ويفهموا موقفهم من الحاكم، وموقف الحاكم منهم. كل يعرف حدوده ويؤدي واجبه، فإذا تعدى الحاكم هذه الحدود قال له الشعب: "لا" بملء فيه ـ يريد تكوين رأي عام واسع الثقافة قويّ حازم، يفهم الأمور الداخلية والخارجية، ويكون لكل ما يعرض من الحوادث العظام رأياً يقنعه ثم يفرضه على أولى الأمر حتى لا يتلاعبوا به، يفهم أن من حقه أن يعيش عيشة صالحة ينعَم بدخوله وله غَلَّة جهده، فإذا أخذت الحكومة منه الضرائب فعلى قدر ما تستدعيه المصالح

---

[1] خاطرات جمال الدين لمحمد باشا المخزومي.

العامة لا الشهوات الشخصية، ولذلك كان من حقه الإشراف على وجوه الدخل والخَرجْ.

ويريد في السياسة أن يقنع الشعب بحقّه في الحكم؛ فإذا فهم ذلك ـ وهذا ما عمله جمال الدين وصحبه ـ طالب بالمجلس النيابي، فَيُعْطَاه بناءً على فهمه وطلبه وقدرته، لا على أنه منحة تمنح له، فإذا أعطيَه بجهده كان أجدر بالمحافظة عليه، وحرَص عليه حِرصه على دمه، فاستقر وثبت، ولم تستطع سلطة ما أن تلغيه أو تهمله.

استدعاه الخديوي توفيق باشا إلى قصر عابدين وقال له: "إني أحب كل خير للمصريين، ويسرني أن أرى بلادي وأبناءها في أعلى درجات الرقى والفلاح؛ ولكن مع الأسف إن أكثر الشعب خامل جاهل، لا يصلح أن يُلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة، فيلقون أنفسهم والبلاد في تَهلكة".

فأجاب جمال الدين: "ليسمح لي سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص" إن الشعب المصري كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل، فبالنظر الذي تنظرون به إلى الشعب المصري ينظر إليكم، وإن قبلتم نصح هذا المخلص، وأسرعتم في إشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى، فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن الأمة تَسُنّ القوانين وتنفذها باسمكم وإرادتكم، يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم"[1] ثم خرج من عنده يخطب في الموضوع، ويستحث تلاميذه وأعوانه على الكتابة فيه في حماسة وقوة.

لقد رأيناه أول عهده في مصر يرى أن مجلس النواب لا قيمة له ما دام المصريون على ما هم عليه من قلة التنبه وضعف اليقظة؛ وقلة الشجاعة، ثم رأيناه آخر عهده يلح في طلب الحكم النيابي ويحرّض

---

[1] خاطرات جمال الدين.

عليه، فلعله رأى من الأحداث واستبداد الحكام، ونضج الأمة في السنين الثماني ما غيّر رأيه وعدّل خطته.

لقد كان الأمير توفيق في آخر أيام إسماعيل باشا يقدره ويدين بمبادئه، وكان السيد يلتقي به في الحفل الماسوني، ويتوسَّم فيه الخير إذا ولى بعد إسماعيل، ولكن الخديوي توفيق لما تولى الحكم سعى إليه الساعون، ودس له الدساسون، فاجتمع مجلس الوزراء وقرر نفي السيد جمال الدين "لأنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا"، فمثلت لنا من جديد رواية سقراط، وقبض عليه وعلى خادمه الأمين الفيلسوف أبي تراب في 6 رمضان سنة 1296، 24 أغسطس سنة 1871، وأودعا باخرة سارت بهما إلى بمباي.

وكان هذا آخر العهد بالأستاذ في مصر، وإن لم يكن آخر عهدها بآرائه ومبادئه.

- 3 -

أقام السيد في حيدر أباد في الهند منفياً لا يُسمح له بمفارقتها، ولا يستطيع أن يشترك في عمل إلا حديثاً مع زائر، أو قراءة في كتاب، أو رداً على سؤال.

وفي هذه المدة ألف كتابه المشهور في "الرد على الدهريين" وعنوانه "رسالة في إبطال مذهب الدهريين، وبيان مفاسدهم، وإثبات أن الدين أساس المدنية "والكفر فساد العمران" وقد كتبها بالفارسية ثم ترجمت إلى الأردية، ثم ترجمها الشيخ محمد عبده بمعاونة عارف بالفارسية، وهو تابع السيد جمال الدين، عارف أبو تراب.

ردَّ في هذه الرسالة على "داروين" ومذهبه في النشوء والارتقاء، وعلى أمثاله ممن ذهبوا مذهبه.

وقد يعجب القارئ من تعرضه لمثل هذا البحث، وهو يتطلب ـ كما فعل "داروين" ـ تخصصاً في العلوم الطبيعية من جيولوجيا وفسيولوجيا وبيولوجيا وأمبريولوجيا "علم تكوين الأجنَّة" وغير ذلك.

ولكن عذر السيد أن مذهب "داروين" قد أثار موجة من الإلحاد قوية ـ وإن لم يكن داروين نفسه ملحداً ـ وطغا في عصره مذهب المادية القائل بأن العالم له أساس واحد هو المادة، ولا شيء وراءها، وكل شيء في الحياة مظهر من مظاهرها حتى الفكر والعاطفة؛ والمادة لا تتجدد ولا تفنى، وقوانينها أبدية لا تتغير، وهي قديمة أزلية أبدية، وليس في هذا العالم شيء يعتريه الفناء، وإنما تتغير الأشكال وبناءً على ذلك فلا نفس، ولا روح، ولا دين، ولا إله.

وهذا المذهب قديم نراه في البوذية، وعند قدماء المصريين وعند بعض فلاسفة اليونان، وظهر في العصور الحديثة في الثورة الفرنسية؛ ودعا إليه كثير من الفلاسفة في إنجلترا، وفرنسا، وألمانيا، وعرفه العرب قديماً وسموا أصحابه "الدهريين" وحكى مذهبهم الجاحظ والشهر ستاني وغيرهما من مؤرخي المذاهب.

وبانتقال الآراء الغربية إلى الشرق انتقل مذهب النشوء والارتقاء، ومذهب الماديين؛ فترجم في مصر "شبلي شميل" مذهب بخنر سنة 1884، وأثار حركة كبيرة حوله. وفي الهند ظهرت طائفة تعتنق هذا المذهب وتسمى طائفة "النيتشرية" نسبة إلى نيتشر Nature (وهي كلمة إنجليزية معناها الطبيعية) وترددت هذه الكلمة وقرعت أسماع الكثيرين، كما قرعت سمع جمال الدين أيام إقامته في حيدر أباد. وسأله الأستاذ محمد واصل مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الأعزة بحيدر أباد في كتاب يقول فيه: "يقرع سمعنا في هذه الأيام صوت "نيتشر"، ويصل إلينا من جميع الأقطار الهندية، ولا تخلو بلدة من جماعة يلقبون بهذا اللقب "نيتشري" فما حقيقة النيتشرية وما مذهبهم، وفي أي وقت ظهروا؟". فكان من ذلك تأليف هذه الرسالة.

ولكن ليس أقوم ما فيها الرد على داروين، وإنما أقوم ما فيها إثبات قيمة الدين، وضرورته للإنسان، وأثره في رقيه، وأثر الإلحاد في انحطاطه.

وهذا هو ما يبلغ فيه جمال الدين الذروة.

وخلاصة رأيه في هذا الموضوع أن الدين ـ على العموم ـ أكسب عقول البشر ثلاثة عقائد، وأودع نفوسهم ثلاث خصال، كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبناء الهيئة الاجتماعية.

العقيدة الأولى التصديق بأن الإنسان ملك أرضي وأنه أشرف المخلوقات والعقيدة الثانية يقين كل ذي دين أن أمته أشرف الأمم، وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل. والثالثة جزمه بأن الإنسان ورد هذه الدنيا لتحصيل كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي، والانتقال من دار ضيقة الساحات، كثيرة المكروهات، جديرة بأن تسمى "بيت الأحزان" إلى دار فسيحة الساحات، خالية من المؤلمات، لا تنقضي سعادتها، ولا تنتهي مدتها. أما الخصال الثلاث فهي الحياء والأمانة والصدق.

ويشرح أن هذه الأسس التي بها الأديان هي علة العمران، وعليها تتوقف سعادة الإنسان، وأن الماديين أو الدهريين أو النيتشريين تؤدي تعاليمهم إلى إنكار هذه الأسس، فتنزل الإنسان منزلة الحيوان، وتفقده الباعث على الخير، وتعده لحياة جامدة ضيقة جافة لا قلب لها، ولا سمو فيها، وفي هذا انتكاس[1] لخلقه، وهدم لكيانه، وحرمان مما أعده الله له.

وفي الإسلام مزايا على سائر الأديان. أولها: صَقْل العقول بِصقال التوحيد، وتطهرها من لَوْث[2] الأوهام. فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله منفرد بتصريف الأكوان متوحد في خلق الأفعال، وأن من الواجب طرح كل ظن في إنسان أو جماد ـ عُلويّاً كان أو سُفْلياً ـ يكون له في الكون أثر من نفع أو ضرّ. أو إعطاء أو منع، أو إعزاز أو إذلال. أو نحو ذلك من خرافات كل واحدة منها كافية في إعماء العقول وطَمْس أنوارها.

---

[1] انتكاس: انقلاب.

[2] اللوث: الشوب والتلويث

وثانيها أن الإسلام فتح أبواب الشرف للأنفس كلها، وأثبت لكل نفس الحق في السمو... ومحق امتياز الأجناس، وتفاضل الأصناف؛ وقوَّم الناس بالكمال العقلي والنفسي؛ فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة لا بأي شيء آخر. وقد لا نجد من الأدبين الأخرى ما يجمع أطراف هذه القاعدة.

وثالثها: أن الإسلام يكاد يكون منفرداً بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل، وتوبيخ المتبعين للظنون... فهو كلما خاطب، خاطب العقل، وكلما احتكم، احتكم إلى العقل، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة. وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل، وانطفاء نور البصيرة.

ورابعها: أن الإسلام أوجب تعليم سائر الأمة وتنوير عقولها بالمعارف والعلوم، وفرض نصْب المعلم ليؤدي عمل التعليم، وإقامة المؤدب الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر، فقال: "ولتكن منكم أمَّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينْهَون عن المنكر" وقال: "فلولا نَفَرٌ من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون".

وعلى هذا الأركان الأربعة بُنيَ الإسلام، وكل ركن منها له الأثر البالغ في تقويم المدنية وتشييد بناء النظام، وتدعيم السعادة الإنسانية، وقد دارت حالة المسلمين رقياً وانحطاطاً على حسب تمسكهم بهذه العناصر وتخليهم عنها.

هذا ما عمله "جمال الدين" في حيدر أباد.

فلما حدثت في مصر "الثورة العرابية" نقلته حكومة الهند من حيدر أباد إلى كلكتا، وألزمته الإقامة فيها مخفوراً مراقباً حتى انتهت الثورة بدخول إنجلترا مصر، فأبيح له الذهاب حيث شاء (في غير الشرق). فيذكر مستر "بلنت" Blunt أنه ذهب إلى أمريكا ليتجنس

بالجنسية الأمريكية، وأقام بها أشهراً ولم ينفذ ما اعتزمه ـ ولم يذكر ذلك غير بلنت من مترجميه[1].

ثم رأيناه في لندن سنة 1883 ولم يطل الإقامة بها، ثم سافر منها إلى باريس، وكان قد كتب إلى تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده، ليوافيه بها من منفاه في بيروت، ففعل.

ما برنامجه؟ ماذا ينوي من العمل بعد ما جرب، وبعد ما نال من الأحداث ونالت منه؟.

هاهو ذا والشيخ محمد عبده يتشاوران فيما يصنعانه من الإصلاح.

فأما الشيخ محمد عبده فكاد يدب إليه اليأس من الجيل الحاضر، بعد أن خبر الناس في حوادث عرابي ورأى غدرهم، وقلة وفائهم، وتكالبهم على مصالحهم الشخصية، فأشار على السيد جمال الدين أن يذهبا إلى مكان بعيد غير خاضع لسلطان دولة تعرقل سيرهما، ثم ينشئان فيه مدرسة للزعماء يختاران لها التلاميذ من نجباء الناشئين من الأقطار الإسلامية. ومن يتوسَّمان فيهم الخير، ثم يربيانهم على منهج قويم يختارانه، ويعدَّانهم للزعامة والإصلاح، قال: "فلا تمضي عشر سنين حتى يكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعوننا في ترك أوطانهم، والسير في الأرض لنشر الإصلاح المطلوب فينتشر أحسن انتشار".

لم يعجب "السيد" هذا الرأي، ورأى فيه خوراً في العزيمة، وجنوحاً إلى السلامة، ومبالغة في التشاؤم من الحاضر، وقال للشيخ

---

[1] وأنا أستبعد رواية مستر "بلنت" لأن السيد لما خرج من الهند سافر بحراً عن طريق البحر الأحمر، فلما كان في بور سعيد كتب إلى الشيخ محمد عبده كتاباً لا تزال محفوظة صورته الفوتوغرافية يقول فيه. "أنا الآن في "برط السعيد" أذهب إلى لندرة... إن أخبار العالم كانت قد انقطعت عني مدة سبعة أشهر، ولذا لا أدري مستقر العارف (وهو تابعه). أخبره بسفري".

محمد عبده: "إنما أنت مُثَبِّط"[1]. ووضع "السيد" خطته وهي إنشاء جريدة عربية في باريس، تُنْشر منها في العالم الإسلامي، تفهمه حقوقه وواجباته وتشعل وطنيته، فكان ذلك وكان من هذا جريدة "العروة الوثقى" يكون "للسيد" فيها الأفكار والمعاني" وللشيخ محمد عبده التحرير والصياغة، وميرزا محمد باقر يعرب لها عن الصحف الأجنبية كل ما يهم العالم الشرقي، وكان وراء هذه المجلة جمعية سرية منبثة في جميع الأقطار الإسلامية، اختير أعضاؤها من بين المسلمين المثقفين المتحمسين لدينهم، ووضع لها يمين يقسمها من يدخل فيها ويتعهد "بأن يبذل ما في وسعه لإحياء الأخوة الإسلامية، وإنزالها منزل النبوة والأبوة الصحيحتين، وألا يقدم إلا ما قدمه الدين، وألا يؤخر إلا ما أخره الدين، ولا يسعى قدماً واحدة يتوهم فيها ضرراً يعود على الدين جزئياً كان أو كليًا، وأن يطلب الوسائل لتقوية الإسلام عقلاً وقدرة، وأن يوسع معرفته بالعالم الإسلامي من كل نواحيه بقدر ما يستطيع" الخ. وأنشئت للجمعية فروع في البلدان المختلفة، وكل فرع يجتمع للمذاكرة، وفي آخر كل اجتماع يتبرع الأعضاء بشيء من المال في صندوق صغير له ثَقْب ضيق يضع فيه كلُّ ما تيسر خُفيةً، حتى لا يعلم من أدى أقل ومن أدّى أكثر؛ ولعل هذا الباب هو ما كان ينفق منه على الجريدة والقائمين بها، فقد كانت ترسل أكثر أعدادها بالمجان.

أصدرا من الجريدة ثمانية عشر عدداً في ثمانية أشهر، ظهر العدد الأول منها في 15 جمادى الأولى سنة 1301 – 13 مارس سنة 1884، وظهر العدد الأخير في 26 ذي الحجة سنة 1301 – 17 أكتوبر سنة 1884.

ماذا كان الغرض من هذه الجريدة؟

---

[1] ولعل هذه الفكرة هي التي أوحت إلى السيد محمد رشيد فيما بعد إنشاء مدرسة الدعوة والإرشاد في مصر.

لخصت الجريدة أهم أغراضها في أول عدد من أعدادها فيما يأتي:

(1) بيان الواجبات على الشرقيين التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات.

ويستتبع ذلك بيان أصول الأسباب ومناشئ العلل التي أفسدت حالهم، وعمّت عليهم طريقهم. وإزاحة الغطاء عن الأوهام التي حلت بهم.

(2) إشراب النفوس، عقيدة الأمل في النجاح وإزالة ما حل بها من اليأس.

(3) دعوتهم إلى التمسك بالأصول التي كان عليها آباؤهم وأسلافهم، وهي ما تمسكت به الدول الأجنبية العزيزة الجانب.

(4) الدفاع عما يُرْمَى به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً من التهم، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون في المدنية ما داموا متمسكين بأصول دينهم.

(5) إخبار الشرقيين بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة.

(6) تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية، وتمكين الألفة بين أفرادها، وتأمين المنافع المشتركة بينها ومناصرة السياسة الخارجية التي لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين.

أراد السيد أن يدعو إلى إصلاح المسلمين دينياً واجتماعياً وسياسياً وإذ كان الإسلام تمتزج فيه العقائد بالنظم الاجتماعية وبالنظم السياسية كانت دعوته شاملة لهذه المناحي الثلاثة.

كان المثل الأعلى له حالة المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين، من حيث العقيدة والصفات الخلقية والنظام السياسي.

فيرى أنهم كانوا موحدين حقاً، معتزين بدينهم، لا تفرقهم المذاهب والنَّحَل، مترابطين برباط الأخوة؛ فيهم خلق الإباء والشمم

يبذلون أعز شيء في سبيل عقيدتهم وعزتهم، ينشرون بينهم العلم ما استطاعوا، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في غير هوادة.

ثم دخل الفساد على توالي الزمن من خمسة أبواب: من عقيدة الجَبْر والخطأ في فهم القضاء والقدر، حتى صرفت النفوس عن الجد في الأعمال، ومما أدخله الزنادقة على تعاليم الإسلام في القرنين الثالث والرابع، فجعلوا المسلمين شِيَعاً وأحزاباً، وأضعفوا قوة الدين بما أدخلوا من تعاليم فاسدة؛ ومما أحدثه السوفسطائية من أفكار، وعدّهم الحقائق خيالات تبدو للنظر، ومما عمله كذَبَة المحدّثين من واضع أحاديث ينسبونها إلى رسول الله، وفيها السم القاتل لروح العمل والإباء، وفيها ما يستوجب ضعفاً في الهمم وفتوراً في العزائم، ومن ضعف التربية والتقصير في إرشاد الجمهور إلى أصول دينهم، ونشر العلم بينهم. وزاد في بعض المقالات أسباباً أخرى أهمها تفكك الروابط بين أجزاء الأمة، فلا ترابط بين العلماء بعضهم وبعض، ولا بين العلماء والأمراء، ومنها أن الدين الإسلامي جعل أمته أمة مجاهدة قوية محاربة، يأمرها الله بقوله: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ فلما استهانت بهذا الأمر، ولم تُعِدّ لكل موقف عدته، ذلت بعد عزة وضعفت بعد قوة.

وكان يختار بعض هذه الأسباب ويُوسعها تفصيلاً، أو يفردها في مقال، كما فعل في مقال (القضاء والقدر). وكان من عادته أن يلهب النفوس بأسواط التقريع ثم يدخل الأمل عليها بأن هذه عوارض يمكن أن تزول ما سلم الأصل، مذكراً دائماً بحالة المسلمين في العهد الأول، وعزتهم الأولى.

وكان مثله الأعلى كذلك حكومة إسلامية واحدة تأتمُّ بالإسلام وتعاليمه. ولما رأى أن ليس في الإمكان خضوعها لأمير واحد اكتفى بالدعوة إلى أن ترتبط أجزاؤها بروابط محكمة، ويكون لها مقصد واحد وتحكم الأقطار كلها بحكومات إمامها القرآن، وأساسها العدل والشورى واختيار خير الناس لتولي الأمور. يقول في ذلك بعد أن دعا إلى اتفاق الأمم الإسلامية: "لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً، فإن هذا ربما يكون عسيراً، ولكني

أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخرين ما استطاع، فإن حياته بحياتهم وبقاءه ببقائهم".

وكثيراً ما كان يضرب المثل بالإمارات الجرمانية في توحدها بعد تشتتها، ويدعو إلى حِلْف بين الدول الإسلامية يتزعمه أكبرها وأقواها.

وخَشِيَ أن هذا النظام الذي يدعو إليه يثير الشقاق بين المسلمين وغيرهم من أهل الديانات الأخرى في الأقطار الإسلامية، فقال: "لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه ـ بتخصيصها المسلمين بالذكر أحياناً ومدافعتها عن حقوقهم ـ تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم، ويتفق معهم في مصالح بلادهم، ويشاركهم في المنافع من أجيال طويلة؛ فليس هذا من شأننا، ولا مما تدعو إليه، ولا مما يبيحه ديننا، ولا تسمح به شريعتنا" الخ.

وقاد هذا التفكير في نوع الحكومة التي يأملها، والأخلاق التي يرجوها من العزة والشمم والقوة، أن يناهض ـ في الجريدة ـ الاحتلال الأجنبي في الأقطار الإسلامية ـ وخاصة في مصر ـ بكل قوته، ويؤلِّب عليه في غير هوادة. وقد شغل هذا أكبر جزء من الجريدة، من كتابة مقالات ورواية أخبار وتعليق عليها، واستعمل لهذا الغرض أشد أنواع التعبير، وأعنف أساليب التهييج، واستغل حوادث المهدي في السودان لإثارة الشعور وإهاجة النفوس.

واستعمل إلى جانب الجريدة رُسُلاً متخفِّين يذهبون إلى الأقطار المختلفة مزودين بالتعاليم التي لا يستطيع نشرها في الجريدة، فرسول إلى موسكو، ورسول إلى الحجاز، حتى أرسل الشيخ محمد عبده مرة ـ وهو محكوم عليه بالنفي ـ إلى مصر وتونُس.

كان من نتيجة ذلك أن أحس من بيده السيادة على الحكومات الهندية والمصرية الخطر من الجريدة، فأمر بمنعها من الدخول، وأصدرت وزارة توبار باشا قراراً بالتشدد في منعها.

فلما أحست الجريدة شدة المراقبة، واستحالة وصول الأعداد إلى أصحابها إلا في القليل النادر، وفي كثير من التحايل، احتجبت.

احتجبت والأسى يحَزُّ في نفس القائمين عليها؛ فلا مَن دعوهم لبّوا الدعوة فثاروا يطلبون أن يكون أمرهم بيدهم، ولا الجريدة استطاعت أن تستمر في دعوتها حتى تؤدى رسالتها.

وبهذا انتهت مرحلة أخرى من حياة "السيد" مدتها ثلاثُ سنين قضاها في باريس، كلها عناء، وكلها جهاد، انتهت بما أحزنه وخيب أمله، وإن كانت المعاني لا تنعدم كما أن المادة لا تنعدم.

- 4 -

حادثان هامان حدثا في السنين الثلاث التي كان فيها "السيد" في باريس، أحدهما اتصاله بالفيلسوف الشهير "رينان" وإعجاب كل منهما بالآخر، ودخولهما معاً في معركة ـ وإن لم تكن حامية ـ حول الإسلام والعرب؛ وقد فتحت صدرها لهذه المعركة جريدة "الديبا" الفرنسية الشهيرة.

فقد ألقى الأستاذ "رينان" في السوربون محاضرة دارت حول نقط ثلاث:

(1) خطأ المؤرخين في قولهم: علوم العرب، وفنون العرب، وتمدن العرب، وفلسفة العرب، مع أن هذه الأشياء نتاج الأمم غير العربية أكثر منه نتاجاً للأمة العربية، فالتمدن أكثره من نتاج الفرس، والفلسفة أكثرها من نتاج النصارى النسطوريين الوثنيين الحَرّانيين. والفلاسفة الذين ظهروا في دولة الإسلام كالكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد لم يكن منهم من العرب إلا الكندي، فنسبة الحضارة والمدينة والعلم والفلسفة إلى العرب خطأ. وعدم دقة في التعبير.

(2) إن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر، بل هو عائق لها، بما فيه من اعتقاد للغيبيات وخوارق العادات والإيمان التام بالقضاء والقدر.

ومن اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد أو أحرقت كتبه أو كان في حماية خليفة أو أمير مؤمن في الظاهر غير متدين في الباطن؛ ومع ذلك فما وصل إليه هؤلاء في الفلسفة ليس له قيمة كبيرة، فهو ليس إلا فلسفة اليونان مشوَّهة، والفلسفة التي أخذها الأوربيون عن المسلمين في أسبانيا كانت فلسفة رديئة الترجمة، مشوهة الأصل، لم تستفد منها أوربة الفائدة الحقة إلا بعد ترجمتها ترجمة جديدة من منابعها الأصلية. ومع هذا يقول "رينان": "إن في دين الإسلام تعاليم ومبادئ عالية القيمة رفيعة المقام، وما دخلت في حياتي مسجداً من مساجد المسلمين إلا شعرت بجاذبية نحو الإسلام، بل تأسفت ألا أكون مسلماً..."، ولكن الإسلام حجب العقل عن التأمل في حقائق الأشياء... وعقول أهل البلاد الإسلامية قاصرة، وما يتميز به المسلم هو بعضه للعلوم واعتقاده أن البحث كفر وقلة عقل لا فائدة فيه.

(3) إن العنصر العربي بطبيعته أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها؛ فالزمن الذي كان يسود فيه العنصر العربي ـ وهو عهد الخلفاء الراشدين ـ لم تكن فيه فلسفة، ولم يظهر فيه البحث العلمي ولا الفلسفة إلا حين انتصرت الفرس ونصروا العباسيين على الأمويين وسلموهم زمام الملك، ونقلوا الخلافة إلى العراق، مهد التمدن الفارسي القديم.

وختم محاضرته بالإشادة بقيمة العلم ودعوة الأمم كلها شرقية وغربية إلى الهجوم عليه، "فالعلم روح كل هيئة اجتماعية، وبه تتقدم الأمم، وبه يتحقق العدل، وبه يستخدم العقل القوة... وهو لا يساعد إلا على التقدم المؤسس على حرمة الإنسان وحريته".

نشرت هذه المحاضرة في جريدة "الديبا" فأثارت خواطر المسلمين والمستشرقين والباحثين في شؤون المسلمين.

فكان ممن رد عليه الأستاذ "مسمر" رئيس البعثة المصرية بفرنسا إذ ذاك، وفي رده كاد يسلم بالمسألة الأولى، وهي أن المدنية العربية ليست مدنية العرب وحدهم، بل مدنية الأمم المختلفة التي دخلت في الإسلام. وفي المسألة الثانية قال إنه ليس في دين الإسلام

وتعاليمه ما يمنع المسلمين من التقدم العلمي، وقد تقدم المسلمون في عصور مختلفة ولم يمنعهم دينهم من أن يتفوقوا على المسيحيين في بعض تاريخهم، وكل سائح الآن يسيح في البلاد الإسلامية يشعر بنهضة الشرق وأخذه بأساليب التقدم والإصلاح، من غير أن يصدهم دينهم عن ذلك. ثم قال "ومن الغريب أنه قبل أن يلقى المسيو رينان خطبته بيومين ألقى بعض العلماء العظام أمام المحفل نفسه محاضرة اشتملت على مكتشفات العرب في علم الحياة ـ وقد نشرت هذه المحاضرة في المجلة العلمية ـ ...وهي محاضرة ترشدنا إلى حقيقة التمدن الإسلامي في القرون المتوسطة، فلو اطلع المسيو رينان عليها وعلى ما كتبه "سديو" و"دوزي" في مؤلفاتهما عن العلوم والآداب والفنون والصنائع المنسوبة إلى العرب، وعرف ما عملته هذه الأمة في العلم، مما لا يحصى عدده، على حين كانت اوربة منغمسة في التوحش والجهالة ـ ما نسب إلى العرب ما نسب، وهذا العلم تقدم بمعونة الدين لا برغم الدين. فإذا كان الإسلام سمح للنساطرة والمجوس واليهود في دولته بهذا التقدم العلمي الذي ذكره مسيو رينان، فلماذا لا يكون سبباً في حمل ملايين المسلمين الآن على الأخذ بأسباب العلم". وأما المسألة الثالثة فلم يعرها مسيو مسمر كبير اهتمام في الرد.

وقد تحمس الشبان المسلمون في باريس لمقال "رينان" ورد "مسمر" فاجتمعوا وكلّفوا أحدهم حسن عاصم "حسن باشا عاصم فيما بعد" تعريب المحاضرة والرد عليها فعربها، وقال في أول ذلك: "لما كان الذب عن الدين فرضاً على الإنسان؛ وحب الوطن من الإيمان، اجتمع جم غفير من طلبة العلم المصريين المقيمين بفرنسا وكلفوا أخاهم العبد الفقير "حسن عاصم" بتعريب الخطبة التي ألقاها رينان... طعناً في دين الإسلام والأمة العربية، وبتعريب ما كتبه الفيلسوف الكبير صاحب الفكر الصائب المسيو مسمر... والغرض أن نقف على الطعن والرد كلّ من كان على دين الإسلام أو من الأمة العربية، حتى يمكنهم تفنيد كلام المسيو رينان، فيفعلوا إظهاراً للحق". كما عرب

محمد مختار أحد طلبة العلوم الطبية بباريس المحاضرة التي أشار إليها مسيو مسمر.

بعد بضعة أسابيع من نشر محاضرة رينان رد الأستاذ جمال الدين عليه في "الديبا" أيضاً، ولكن كان رده هادئاً في بعض نقطه، فلعله لذلك لم يعجب حسن عاصم ولا إخوانه، ولذلك لم يهتموا بترجمته إلى العربية أو نشره، فقد مدح رينان على بحثه وإنصافه، وقال إنه استفاد من محاضرته استفادة كبيرة، ثم قال: "إن المحاضرة تشتمل على نقطتين أساسيتين:

(1) أن الديانة الإسلامية كانت ـ بما لها من نشأة خاصة ـ تناهض العلم.

(2) أن الأمة العربية غير صالحة بطبيعتها لعلوم ما وراء الطبيعة ولا الفلسفة.

"فأما عن النقطة الأولى، فإن المرء ليتساءل، بعد أن يقرأ المحاضرة عن آخرها، أصدَر هذا الشر عن الديانة الإسلامية نفسها أم كان منشؤه الصورة التي انتشرت بها الديانة الإسلامية في العالم، أم أن أخلاق الشعوب التي اعتنقت الإسلام أو حملت على اعتناقه بالقوة، وعاداتها وملكاتها الطبيعية هي جميعاً مصدر ذلك؟ لا ريب أن قِصَر الوقت المخصص للمسيو رينان قد حال دون جلائه هذه النقطة".

ثم أخذ يبين أن ما وقع للمسلمين وقع مثله في الأديان الأخرى، "فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية المبجلون لم يلقوا أسلحتهم بعد كما أعلم، وهم عاكفون على محاربة ما يسمونه بالتدليس والضلال "يعني العلم والفلسفة".

قال: "وأما النقطة الثانية فالكل يعلم أن الشعب العربي خرج من حال الهمجية التي كان عليها وأخذ يسير في طريق التقدم الذهني

والعلمي، ويُغِذّ[1] السير بسرعة لا تعادلها إلا سرعة فتوحاته السياسية، وقد تمكن في خلال قرن من التكيُّف بالعلوم اليونانية والفارسية... فتقدمت العلوم تقدماً مدهشاً بين العرب، وفي كل البلدان التي خضعت لسيادتهم. وقد كانت رومة وبيزنطة المدينتين الرئيسيتين لعلوم اللاهوت والفلسفة، بل مبعث أنوار المعارف الإنسانية كلها ثم جاء الوقت الذي وقف فيه علماء هاتين المدينتين عن البحث، وتهدمت فيه نصبهم التي أقاموها للعلم، ودرجت كتبهم القيمة في طي النسيان، وقد كان العرب في ذلك الجهل حين شرعوا يتناولون ما تركته الأمم المتمدنة فأحبوا تلك العلوم المندثرة، ورقوها وخلعوا عليها بهجة لم تكن لها من قبل، أو ليس هذا دلالة بل برهاناً على حبهم الطبيعي للعلوم؟

"صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم كما أخذوا عن الفرس ما اشتهروا به، بيد أن هذه العلوم التي أخذوها بحق الفتح قد رقوها ووسعوا نطاقها ووضحوها، ونسقوها تنسيقاً منطقياً، وبلغوا بها مرتبة من الكمال تدل على سلامة الذوق وتنطوي على التثبيت والدقة النادرين، وقد كان الفرنسيون والإنجليز والألمان لا يبعدون عن رومة وبيزنطة بعد العرب عنهما، وكان من اسهل عليهم أن يستغلوا كنوز علوم تلك المدينتين، ولكنهم لم يفعلوا، حتى جاء اليوم الذي ظهر فيه منار المدينة العربية على قمة جبل النبراس يرسل ضوءه وبهاءه على الغرب، فأحسن الأوربيون إذ ذاك استقبال أرسطو بعد أن تقمص الصورة العربية، ولم يكونوا يفكرون فيه وهو في ثوبه اليوناني على مقربة منهم. أو ليس هذا برهاناً آخر ناصعاً على مزايا العرب الذهنية وحبهم الطبيعي للعلوم؟.

"وبينا يسلم مسيو رينان بأن البلدان الإسلامية في غضون خمسة قرون من سنة 775م إلى أواسط القرن الثالث عشر كانت تحتوي علماء ومفكرين عظاماً، وإن العالم الإسلامي إذ ذاك كان

---

[1] يغذ: يسرع.

يفوق العالم المسيحي في الثقافة الذهنية إذ يقول: إن أكثر الفلاسفة الذين شهدتهم القرون الأولى للإسلام كانوا كنابهى السياسيين من أصل حرَّاني، أو أندلسي، أو فارسي، أو من نصارى الشام.

ولست أريد أن أغمِط علماء الفرس صفاتهم الباهرة، ولا أن أغض الطرف عن الدور الجليل الذي لعبوه في العالم الإسلامي، ولكن أرجو أن يسمح لي أن ألاحظ أن الحرانيين كانوا عرباً، وأن العرب لما احتلوا أسبانيا لم يفقدوا جنسيتهم بل ظلوا عرباً، وأن اللغة العربية كانت إلى ما قبل الإسلام بعدة قرون لغة الحرانيين، وكونهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة وهي "الصابئة" ليس معناه أنهم لم ينتموا إلى الجنسية العربية، وقد كانت أكثرية نصارى الشام عرباً غسانيين اهتدوا بهدى النصرانية. أما ابن باجة، وابن رشد، وابن طفيل، فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندي بدعوى أنهم لم يولدوا في جزيرة العرب، وخصوصاً إذا اعتبرنا أن لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها.

"ثم ماذا يكون لو قصرنا نظرنا على الأصل الذي ينتمي إليه العظيم، ولم نأبه للنفوذ الذي سيطر عليه، والتشجيع الذي لقيه من الأمة التي عاش فيها؟ لو فعلنا ذلك لقلنا إن نابليون لا ينتمي إلى فرنسا، ولما صح لألمانيا أو إنجلترا أن تدعي كلتاهما الحق في العلماء الذين استوطنوها بعد أن رحل أصولهم إليها من بلدان أخرى".

ثم تعرض لأسباب انطفاء هذه الشعلة، وختم رده بقوله: "إن العقل لا يوافق الجماهير، وتعاليمه لا يفقهها إلا نخبة من المتنورين، والعلم ـ على ما به من جمال ـ لا يرضي الإنسانية كل الإرضاء، وهي التي تتعطش إلى مثل أعلى، وتحب التحليق في الآفاق المظلمة السحيقة التي لا قبل للفلاسفة والعلماء برؤيتها أو ارتيادها".

رد عليه الأستاذ رينان وبادله مدحاً بمدح، وإعجاباً بإعجاب، وقال: "تعرفت بالشيخ جمال الدين من نحو شهرين فوقع في نفسي منه ما لم يقع لي إلا من القليلين، وأثر في تأثيراً قوياً، وقد جرى بيننا

حديث عقدت من أجله النية على أن تكون علاقة العلم بالإسلام هي موضوع محاضراتي في السوربون...

والشيخ جمال الدين نفسه خير دليل يمكن أن نسوقه على تلك النظرية العظيمة التي طالما أعلناها، وهي أن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس، وقد خيل إليَّ من حرية فكره، ونبالة شيمه، وصراحته ـ وأنا أتحدث إليه ـ أنني أرى أحد معارفي من القدماء وجهاً لوجه، وأنى أشهد ابن سينا، أو ابن رشد، أو واحداً من أولئك الملحدين العظام الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية من الإسار".

ثم قال: "ولست أرى في البحث النفيس الذي عالجه الشيخ إلا نقطة يصح أن نختلف فيها حقيقة... فلسنا بالتأكيد ننكر ما لرومة على تاريخ الإنسانية من نفوذ، ولا ما كان للعرب من نفوذ، ولكن هذه التيارات الإنسانية العظيمة في حاجة إلى تحليل؛ إذ ليس كل ما كتب باللاتينية يزين تاج شهرة رومة، ولا كل ما كتب باليونانية من عمل اليونانيين، ولا كل ما كتب بالعربية نتاج عربي، ولا كل ما نشأ في بلد مسيحي من تأثير المسيحية، ولا كل ما ظهر في البلدان الإسلامية من ثمار الإسلامية.

"لقد خالني الشيخ غير منصف في أني لم أوفّ الكلام حقه، ولم أقل في المسيحية ما قلته في الإسلام، وأن الاضطهاد بين المسيحيين لا يقل عما كان بين المسلمين؛ وهذا قول حق، فجاليليو لم يلق في الكاثوليك خيراً مما لقيه ابن رشد من المسلمين... وإذا كنت لم أطل القول في هذه الحقيقة فلأن آرائي في هذا الشأن معروفة لا حاجة بي إلى تكريرها على مسمع محفل علم بكل أعمالي وآرائي... ولست أريد من المسيحي ترك عقيدة المسيحية ولا من المسلم ترك الإسلام؛ ولكن أريد من المسيحيين والمسلمين المتنورين أن يهتموا بالعلم اهتماماً لا تعوقه العقيدة، وقد تم هذا في نصف البلدان المسيحية، ونرجو أن يتم مثله في الإسلام. وإن يوماً يتم ذلك فيه لمّا أرحب به أنا والشيخ ونطرب له جميعاً".

واستمر في تأييد رأيه الذي قاله في المحاضرة ثم ختم مقاله بقوله: "ويلوح إلى أن الشيخ جمال الدين قد زودني بطائفة من الآراء الهامة تعينني على نظريتي الأساسية، وهي أن الإسلام في النصف الأول من وجوده لم يحل دون استقرار الحركة العلمية في الأراضي الإسلامية، ولكنه في النصف الثاني خنق الحركة العلمية وهي في حظيرته، فكان هذا من سوء حظه".

وهذه النتيجة الأخيرة ـ من غير شك ـ فيها كثير من التعديل لآراء رينان السابقة، وهي تؤدي حتماً إلى أن مقاومة العلم ليست من طبيعة الإسلام، ولو كانت من طبيعته ما شجع الحركة العلمية في أوله ولا آخره.

وإلى هنا أسدل الستار على هذه الرواية التي سيعاد تمثيلها ـ على وجه أشد ـ بين مسيو هانوتو والشيخ محمد عبده. وما أقوى الردود ولكن أقوى منها رد المسلمين عليها بتبوئهم مكانة عليا في العلم والفلسفة.

***

وأما الحادثة الثانية فسياسة، ذلك أن بعض ساسة الإنجليز ـ وقد أحسوا حملة جريدة العروة الوثقى وتهييجها الرأي العام في إنجلترا ـ رأوا أن يتفاهموا مع القائمين عليها، فبعثوا إلى السيد جمال الدين في ذلك، فأرسل مندوبه الشيخ محمد عبده وقال: "رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الأول لهذه الجريدة) إلي لندرة إجابة لدعوة من يرجى منهم الخير لملتنا، ومن يؤمل فيهم حسن النية..." (إشارة إلى مستر بلنت).

قابل محرر الجريدة كثيراً من رجال السياسة الإنجليزية وحادثهم محادثات طويلة في المسألة المصرية، ومن هذه المحادثات ما نشر إذ ذاك في الجرائد الإنجليزية، واكتفى السيد جمال الدين في العدد الرابع عشر من العروة الوثقى بذكر محادثات كانت بين الشيخ محمد عبده ووزير الحربية الإنجليزية لورد "هرتنكتن" خلاصتها أن وزير الحربية سأل الشيخ محمد عبده: ألا يرضى المصريون أن

يكونوا في أمن وراحة تحت سلطة الإنجليز، وهي خير من سلطة الأتراك ومن جاء على أثرهم، خصوصاً وأن الجهالة عامة في أقطار مصر، وأن كافتهم لا يفرق بين حاكم أجنبي وحاكم مصري؟!

ورد الشيخ محمد عبده بما خلاصته: أن في المصريين من يحبون أوطانهم حب الشعب الإنجليزي لبلاده، وأرض مصر من زمن محمد علي انتشرت فيها العلوم والمعارف، وأخذ كل منها نصيباً على قدره، ولا تخلو قرية مصرية من قارئين وكاتبين يقرءون الجرائد العربية ويوصلون ما فيها إلى من لم يقرأ، والنفرة من ولاية الأجنبي من طبيعة البشر، فضلاً عما لتعاليم الإسلام في هذا الشأن.

وقد أخذت الجريدة هذا الحديث وسيلة لتهييج وإثارة الشعور. وعلى كل حال فلم تأت هذه الأحاديث بنتيجة من التفاهم، واستمرت الجريدة في خطتها حتى حجبت كما أسلفنا.

- 5 -

ماتت جريدة العروة الوثقى، ولكن لم يمت أثرها، فقد أحيت روح كثير من المتنورين في العالم الشرقي، وأيقظتهم من سباتهم، وبصرتهم بسوء حالهم مع الاحتلال، وعلمتهم كيف يكتبون ويخطبون ويدعون إلى الشعور بالقومية الذي سمى بعد بالاستقلال؛ فإن قلنا إنها كانت أول شرارة في الشرق لإلهاب الشعور بالكراهية للحكم الأجنبي لم نبعد؛ فقد كتبت في الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية والمسألة المصرية والسودانية والهندية، وعالجتها كلها في حماسة وتهييج بالغين، ونظرت إلى كل ذلك في ضوء السياسة الدولية العامة والتفتت إلى الشعوب تحركها وتثير شعورها، الحكومات المختلفة تبين لها أضرارها من احتلال الشرق. وهكذا وهكذا.

لم تتأثر بالدعوة وقتذاك الشعوب ولا الحكومات الأجنبية ولا المحلية، وإنما تأثرت بها طبقة قليلة من المستنيرين في الأقطار الشرقية المختلفة تأثراً كان نواة للحركات الوطنية بعد، ولست أزعم أنها كانت النواة الوحيدة، ولكن كانت النواة الأولى.

على كل حال عطلت الجريدة وانفرط عقد القائمين بأمرها. فالشيخ محمد عبده وميرزا باقر يعودان إلى بيروت والسيد جمال الدين إلى فارس بناء على دعوة من الشاه ناصر الدين. تلقاه الشاه والعلماء والأمراء في حفاوة، ولكن سرعان ما دبت الغيرة في نفس الشاه وأحس خطره فتنكر له، فاستأذن السيد في الرحيل ورحل إلى سان بطرسبرج عاصمة روسيا، وأقام بها نحو ثلاث سنين من سنة 1886 - سنة 1889.

لماذا اتجه إلى روسيا؟ وماذا عمل في هذه المدة؟

إن معلوماتنا عنه في هذه الفترة قليلة، وأكبر الظن أنه شغل بشيئين:

(1) حال المسلمين الروسيين وعددهم نحو ثلاثين مليوناً، وكانوا يعاملون في عهد القياصرة معاملة ظالمة جائرة، فلعله حاول باتصاله برجال الحكم إذ ذاك أن يلطف من ظلمهم ويخفف من جورهم. وقد عرف عنه أنه سعى عند القيصر في طبع المصحف، وبعض الكتب الدينية لمسلمي الروس، فأذن له في ذلك

(2) ما كان لروسيا من أثر كبير في سياسة الشرق ومناهضتها للسياسة الإنجليزية في آسية، وضغطها الشديد على الدولة العثمانية، والعمل على إتعابها، وتقطيع أوصالها؛ ومع هذا التنافس والمخاصمة على الشرق بين إنجلترا وروسيا؛ فإن كثيراً من السياسيين يرون أن هذه المنافسة أفادت إنجلترا وفرنسا وإيطاليا أكثر مما أفادت روسيا، فلولا ضغط الروس على الدولة العثمانية ما سهل على فرنسا الاستيلاء على الجزائر وتونس، ولا إيطاليا الاستيلاء على طرابلس، ولا على إنجلترا الاستيلاء على مصر.

على كل حال انغمس "السيد" في أثناء إقامته في روسيا في السياسية الدولية حرض روسيا على سياسة إنجلترا، ونشر في الجرائد الروسية مقالا في السياسة الأفغانية، والفارسية، والعثمانية،

والروسية؛ ونقد السياسة الإنجليزية، وقابل القيصر فسأله عن آرائه في الشرق، ثم سأله عن سبب خلافه مع الشاه، فقال: إنه الحكومة الشورية، أدعوا إليها ولا يراها. قال القيصر: الحق مع الشاه، فكيف يرضى ملك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته؟ قال السيد: أعتقد يا جلالة القيصر أنه خير للملك أن تكون ملايين رعيته أصدقاءه من أن يكونوا أعداء يترقبون له الفرص. فلم يعجب القيصر هذا الحديث؛ وقام: علامة الإذن له بالانصراف.

ثم سافر "السيد" إلى أوروبة على نية أن يزور معرض باريس سنة 1889 وفي أثناء سفره من روسيا إلى باريس نزل ميونيخ في ألمانيا، وتقابل مع شاه الفرس ناصر الدين، فعرض عليه العودة معه إلى فارس، واعتذر إليه عما كان، ووعده أن يمهد له طريق الإصلاح الذي يقترحه، فرفض السيد أولاً وقبل أخيراً.

هاهوذا السيد في طهران، يلتف حوله جمهور من العلماء والعظماء، يتبلور فيه ما في نفوس الخيرين من ميل إلى الإصلاح، فيسعى هو ومن التفت حوله إلى وضع المشروعات في إصلاح الإدارة، وإقامة العدل، وتقنين القوانين، وفوق ذلك تنظيم الحكم النيابي للبلاد، والحركة تشتد وتمتد، والشاه يظهر الاستعداد لقبول هذه المطالب، والنفوس العاملة تفرح لقرب النصر، والأمل في الخير، ولكن سرعان ما اكفهر الجو وأنذر بالصواعق؛ فقد وسوس الصدر الأعظم للشاه أن الحكم النيابي يسلبه سلطانه، والنظام الإداري والقانوني المقترح أعلى من مستوى الناس، ونحو ذلك من مقالات السوء التي سمعنا مثلها في مصر أيام إقامة "السيد" فيها، وفي تركيا أيام "مدحت" وفي كل مكان وزمان يدور فيهما النزاع بين دعاة الإصلاح ودعاة الرجعية.

فتجهم الشاه له وأحس "السيد" الخطر منه، فخرج إلى مقام "عبد العظيم" أحد حفداء الأئمة ـ على بعد نحو عشرين كيلو من طهران ـ والفرس يعدون مقامه حرماً من دخله كان آمناً. اتخذه السيد مركزاً لدعايته وخطبه وتهييج الرأي العام لطلب الإصلاح، وبعض العلماء والوزراء والضباط يحجون إليه ليسمعوا خطبه، ويصغوا إلى

آرائه، ويعودوا وقد شحنوا قوة كهربائية بقدر تحملهم للشحنة، وكلهم ثائر هائج يريد الإصلاح، وأقام على ذلك أشهراً والبلاد يزداد غليانها، ومركز الشاه والحاشية يزداد خطراً، والمنشورات تذاع، والكتب الأغفال من الإمضاء تصل إلى الشاه بالعدل أو العزل. وبالحكم النيابي أو تولية غيره.

فما راع "السيد" إلا خمسمائة جندى مسلحون يهجمون عليه غير حافلين بحرم الشيخ عبد العظيم ولا بمرض السيد مرضاً شديداً. وكما يصف هو: "سحبوني على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يتصور دونها في الشناعة... ثم حملني زبانية[1] الشاه ـ وأنا مريض ـ على برذون[2]، مسلسلاً، في فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية، وساقتني جحفلة من الفرسان إلى خانقين" ومنها سافر إلى البصرة يعاني ألم المرض الذي اشتد عليه من هذا الحادث، وكاد يودي به لولا لطف الله.

فلو رأيته ثم لرأيت رجلاً أكلت منه حمى الحمية حمى المرض، وقد تجمع دمه في رأسه يحتقن، وفي وجهه يلتهب، وفي عينه تقذف بالشرر؛ كيف يهان هذا الهوان وهو الرفيع النسب، العزيز الحسب، العظيم الجاه، العالي المنزلة في دينه وشرفه وعقله، ورغبته في الخير؟ كيف يرجوه الشاه أن يأتي بلده ويعده أن ينفذ إصلاحه، ويعلي كلمته، ثم يعامله معاملة العبد يطرد والذليل يصفع، والحقير يهان؟.

لقد آلى أن ينتقم منه شر انتقام، وألا تهدأ نفسه حتى ينزله عن عرشه، وقد بر فيما أقسم فأخذ يكتب إلى علماء الدين المسموعي الكلمة يهيجهم على الشاه، ولا يتورع أن يصفه بأقبح الصفات، ويبين ضرره على الأمة، ويثير عاطفتهم الدينية، ليشغبوا عليه حتى يخلع. وكان الشاه قد تعاقد مع شركة إنجليزية على احتكارها "التنباك"

---

[1] الزبانية: رجال الشرطة.

[2] برذون: دابة.

فانتهز الفرصة وأبان الضرر على الأمة من هذا الاحتكار، وأهاب برجال الدين أن يذودوا عن وطنهم، فاستمعوا إليه؛ وهاجوا على الشاه، وهيجوا عليه، حتى اضطر إلى فسخ العقد، ودفع نصف مليون ليرة تعويضاً للشركة، فكانت هذه أول خطوات الانتقام.

ثم لما عادت إليه عافيته سافر إلى لندرة، وحاضر نبلاء الإنجليز وكبراءهم في مصائب الشاه على فارس، وساهم في إخراج مجلة شهرية اسمها "ضياء الخافقين" تصدر بالعربية والإنجليزية، كان يكتب فيها مقالات بإمضاء "السيد الحسيني" يفضح فيها حكومة الشاه، وسوء الإدارة، وانتشار الرشوة وتعذيب الأهالي، ويحرض فيها العلماء على عمل صغير، وهو أن يصدروا فتوى بعدم التعاون مع الشاه فإذا هو طريد، ويختار من الألفاظ والجمل في مدح العلماء وقوتهم أضخمها وأقواها، وفي ذم الحكومة والشاه أهجاها وأقساها.

هذه زلة كبيرة من السيد جمال الدين دعاه إليها حدته وحبه للانتقام، إذ كيف أجاز لنفسه التشهير بحكومة شرقية إسلامية في بلاد أجنبية تتخذ من أقواله حجة للتدخل الذي طالما حاربه في "العروة الوثقى" وكيف استباح أن يفضح هذه العيوب، ويغسل هذه الأثواب القذرة على مشهد من كل الناس؟

لقد كان مدحت باشا في موقف كهذا أنبل من السيد وأكرم، إذ نفاه "عبد الحميد" وأخذه رجاله من دست الوزارة إلى السفينة، لا مال ولا ثياب ولا أهل؛ ومع هذا فما وضع قدمه في أوروبة حتى أخذ يسعى في دفع الشر عن أمته، ويكلم الكلام الكثير في فضل الأتراك على أوربة. ولا ينطق بكلمة في ذم عبد الحميد الذي عامله معاملة الشاه لجمال الدين. الحق أنها غلطة من غلطات "السيد" دعا إليها حدة مزاجه.

لقد رجاه سفير فارس أن يكف عن الطعن في الشاه، وعرض عليه المال الكثير، فقال: لا، حتى يلقى الشاه ربه.

تجمع عند السلطان عبد الحميد من الأسباب ما حمله على أن يدعو "السيد" إلى الأستانة، فهو يخشى أن ينضم إلى حزب تركيا

الفتاة، فيكون قوة كبرى إلى قوتهم، خصوصاً وقد كان السيد اجتمع في باريس ببعض رجال هذه الجمعية، وأطلعوه على خطتهم في إصلاح الدولة العثمانية، فراقه مذهبهم، وشجعهم على عملهم، وسمى جمعيتهم "الجمعية الصالحة" وبلغ السلطان ذلك عنه. ثم إن الشاه وسط السلطان في كف أذى جمال الدين. لهذا وذاك رجاه السلطان عبد الحميد أن يزور الأستانة فأبى، ثم سلط عليه حيله ومكايده، ووعده ـ في تنفيذ آرائه في الإصلاح ـ ومناه حتى قَبِل، وما إن وضع قدمه في الأستانة حتى كان في قفص من ذهب أحكم بابه، لقد وعده السلطان أن له حرية الخروج من الأستانة إذا شاء، ولكن كان كل ذلك خدعة.

أمر السلطان عبد الحميد باستقباله استقبالاً حسناً، وأجرى عليه 75 ليرة شهرياً. وأنزله بيتاً ظريفاً في نيشان طاش، بالقرب من يلدز، وجعل تحت أمره عربة وخدماً وحشماً، بعضهم للخدمة وبعضهم للتجسس، وأحاطه بكل أنواع الرعاية المادية.

لقد خيل إليه أنه بمعونة السلطان يستطيع أن يوسع دائرة إصلاحه، فيضع خطته لجامعة إسلامية، يؤلف بها بين فارس والأفغان وتركيا وولاياتها بنوع من الاتحاد أو الحلف، ثم يرسم منهج إصلاح الإدارة في الدولة العثمانية وإصلاح التعليم، وفاته أن جو الأستانة في عهد عبد الحميد لا يصلح أن تنمو فيه بذرة صالحه، وكان له في مدحت وأشباهه العظة البالغة. ولقد زار الأستانة الشيخ محمد عبده بعد وفاة السيد وفي عهد عبد الحميد، فقال فيها: "إنه لم ير بيئة في العالم ـ ولم يكن يعقل وجود بيئة ـ كالأستانة في سوء تأثيرها في العقل والفكر والقلب، وإن ذهنه فيها كان ممسوحاً كأنه لم يكن فيه شيء من العلوم والآراء، ولهذا كان أحرار الترك معذورين في شرودهم منها، وتوطين أنفسهم على كل ما يمكن أن يلقاه الإنسان من ضروب البلاء والمحن".

وقابل السلطان السيد، في يلدز، فرأى منه شخصية غريبة جريئة في القول والحركة جرأة لم يشهدها من أحد قبل. يطلب منه السلطان أن يترك مهاجمة الشاه، فيقول "السيد": إني لأجلك قد عفوت

عنه. فيرتاع السلطان لمثل هذا القول ـ والسيد في حضرته يلعب بحبات السبحة، فإذا لفت نظره رئيس "المابين" إلى ذلك بعد خروجه قال له: "إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة، أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بسبحته كما يشاء" فيفزع رئيس المابين، ويهرب من سماعه هذه الكلمة خشية أن يكون قد سمعها أحد.

لقد تحدث إلى السلطان كذلك في الحكم الشوري للدولة العثمانية، فخدعه السلطان بتظاهره بحسن الاستعداد له، وفرح السيد بهذا التظاهر، واتفق معه على العمل لتكوين الجامعة الإسلامية؛ وعرض عليه السلطان منصب شيخ الإسلام، فأبى إلا إذا عُدّل النظام من أساسه أولاً. وكرر مقابلته للسلطان والحديث إليه، وكوَّن أخيراً فكرة عن السلطان عبد الحميد بأنه ذكي واسع الإطلاع على السياسة الأوروبية وألاعيبها، واسع الحيلة في العمل على ضرب بعض الدول ببعض، ولكنه جبان يفسد عليه جبنه ذكاءه ومعرفته.

كانت المدة الأولى من إقامته في الأستانة محفوفة بعطف السلطان عليه ولو ظاهراً ـ يزوره السيد ويشير عليه بالإصلاح؛ قال له مرة: "خذ بحزم جدك السلطان "محمود" وأقص الخائنين خاصتك الذين يتكتمون عنك حقائق ما يجري في الولايات، وخفف الحجاب عنك، وأظهر للملأ ظهوراً يقطع من الخائنين الظهور، واعتقد أن نعم الحارس الأجل "فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون".

ولكن ذهب كل ذلك مع الريح، ووجد له في الآستانة خصم لدود،هو أبو الهدى الصيادى الذي أتقن من الحيل والدهاء والدسائس والمؤامرات والغلبة على عقل السلطان مالا ينفع معه إخلاص جمال الدين وصراحته ونصحه، ففسدت حياة السيد، وفسد ما بينه وبين السلطان، وضاع كل أمل له في التعاون معه على الإصلاح، وأصبح يقول في مجالس خاصته: "إن هذا السلطان سل في رئة الدولة" واقتصرت قيمة السيد مدة إقامته في الأستانة ـ وهي أربع سنين وأشهر ـ على ما كان يلقيه على زواره وسماره من أحاديث وآراء، إلى دسيسة بين حين وآخر تحاك حوله، ويصرف الزمن في نقضها.

وكل تراثنا منه في هذه الفترة بعض من أحاديثه اللطيفة وآرائه الطريفة[1] وتحريكه عقول سامعيه إلى التفكير الحر في الإصلاح وفي الشؤون الاجتماعية.

في هذه الفترة كانت تظهر من أحاديثه آثار الأسف والحزن، إذ يعرض ماضيه فيرى ما كان منه من جهاد طويل في تحريك الشعوب الإسلامية ثم لم ينبض لها عرق، وفي رجال عقد عليهم الأمل ثم غدروا، وفي شاهٍ خان، وفي جريدة عطلت، وفي سلطان لا أمل فيه، وفي بيئة خانقة. ماذا في يده بعد حياة طويلة قضاها في الكفاح وفي النفي، وفي الحبس، وفي الطرد، وفي التفكير والتحرير، وفي إيقاظ العقول النائمة والنفوس الخائرة؟ لا شيء إلا أنه أسد في حديقة الحيوان، ينشد حرية نفسه فلا تجدها؛ بعد أن كان ينشد حرية الأمم الإسلامية كلها ويأمل أن يجدها.

يزوره شكيب أرسلان، ويدور الحديث حول ما روى من أن العرب عبروا المحيط الأطلانطيقي قديماً، وكشفوا أمريكا، فيقول السيد: "إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الإنسان: كونوا بني آدم، أجابوه: إن آباءنا كانوا كذا وكذا. وعاشوا في خيال ما فعل آباؤهم، غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفى ما هم عليه من الخمول والضعة. إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا: أفلا ترون كيف كان آباؤنا؟ نعم! قد كان آباؤكم رجالاً، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم"، "إن المسلمين قد سقطت هممهم، ونامت عزائمهم، وماتت خواطرهم، وقام شيء واحد فيهم هو شهواتهم". "هذا محمود سامي البارودي عاهدني ثم نكث معي، وهو أفضل من عرفت من المسلمين".

ولكن أحياناً تنقشع عنه سحابة اليأس، ويعود إلى أمله في الشرق والمسلمين، ويعود على ذكر الداء والدواء، والأمل في العلاج، ككل

---

[1] روى كثيراً منها المخزومى في خاطراته، وشكيب أرسلان في ترجمته.

النفوس البشرية، تتردد بين الحزن والسرور واليأس والأمل، وكالطبيعة تتردد بين الصحو والغيم، والإرعاد والإبراق ثم الإشراق.

فها هو ذا في رفقة من صحبة يحللون أدواء الشرق ويستوصفونه العلاج، فيقول.

إن الدواء هو ما يسير عليه الغربيون من العزة والجرى على قول الشاعر العربي: "عش عزيزاً أو مت وأنت كريم". فإذا كان هذا بعيد المنال، فلا بد من تربية جيل جديد تربية دينية صحيحة، يتولى أمرها أناس يأخذون على أنفسهم عهداً ألا يقرعوا باباً لسلطان، ولا تضعضعهم الحدثان[1] ولا يثنى عزمهم الوعد، ولا يغرهم الوعيد بالمنصب، ولا تلهيهم التجارة ولا المكسب، بل يرون في المتاعب وتحمل المكاره لنجاة الوطن من الاستعباد غاية المغنم، وفي عكسه المغرم.

قيل له: وهل هذا في الإمكان؟

قال: إن الأزمة تلد الهمة، ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق، ولا يظهر فضل الفجر إلا بعد الظلام الحالك ـ وعلى ما أرى قد أوشك فجر الشرق أن ينبثق، فقد أدلهمت فيه ظلمات الخطوب، وليس بعد هذا الضيق إلا الفرج، سنة الله في خلقه".

ثم استطرد في المجلس إلى بيان الخطر مما تستعمله بعض الأمم الأجنبية في الشرق من إضعاف اللغة القومية وقتل التعليم القومي، والتنفير من آداب الأمم الشرقية، لتحل محلها لغتها وآدابها "مع أنه لا جامعة لقوم لا لسان لهم، ولا لسان لقوم لا آداب لهم، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم، ولا تاريخ لهم إذا لم يقم منهم من يحي آثار رجال تاريخهم، فيعمل عملهم وينسج على منوالهم". وكانت محاضراته في مجالسه تدور حول موضوعات هامة تخلقها المناسبة، كلها ترمي إلى الإصلاح في العقيدة وفي الاجتماع وفي اللغة. وبين

---

[1] الحدثان: نوائب الدهر وتصاريفه.

حين وآخر تثار حفيظة[1] السلطان عليه بما يدبره أبو الهدى الصيادى وصحبه، فيزور الأستانة ـ مثلاً ـ الخديو عباس ويريد مقابلة جمال الدين، ولا يكون هذا إلا بإذن، فيرفض السلطان ويأمر جمال الدين ألا يقابله، فيقول لرسول الخديو: "إني كضيف للسلطان أسير لمضيفي في منزله، ولكني أذهب كل يوم إلى "الكاغدخانة" فإن شاء أن يحضر الخديو إلى هناك فليفعل فذهب الخديو وقابله على انفراد، فأطرى الخديو السيد وأبدى له إعجابه به، وحياه تحية لطيفة، وهذا كل ما كان فأطار الجواسيس إشاعات في الجو وملأوا التقارير بأن جمال الدين قد تعاقد مع الخديو عباس على تأسيس دولة "عباسية" ووضعوا بيتين نسبوهما إلى جمال الدين هما:

شاد الخلافة في بني العباس

عباسُ لكنْ نعتُه السفاحُ

ولأنت خير مملك ستشيدها

بالبشر يا عباس يا صفَّاحُ[2]

وقامت للدنيا وقعدت، واستدعى السلطان جمال الدين وسأله، فقال: إن الأمر بسيط، فقد كتبت التقارير أنا كنا وحدنا وليس معنا ثالث، فمن سمع هذا القول؟ وهل إذا كان هذا الخبر صحيحاً أقوله أنا أو يقوله عباس؟ ثم أقسم أن شيئاً من ذلك لم يحدث، وأنه في حياته لم ينظم شعراً، وانتهى الأمر، ولو ـ في الظاهر ـ بعد جلبة طويلة، وضجة مفتعلة.

---

[1] الحفيظة: الغضب.

[2] الصفاح: الكثير العفو.

وحدث أن الشاه ناصر الدين ـ الذي كان بينه وبين السيد الخصومة التي عرفنا ـ قد قتل، وكان القاتل أحد تلاميذ جمال الدين، وممن كانوا يزورونه في الأستانة، وروى أنه عندما طعن طعنة قال: "خذها من يد جمال الدين". وروى عن جمال الدين أنه لما بلغه ذلك قال كلمات تدل على الإعجاب بالقاتل، فذلك كله أرعب السلطان عبد الحميد، وخاف منه على حياته، فضيق عليه في مقابلاته ومنع زيارته إلا بإذن، فغضب جمال الدين وعزم على الرحيل من الأستانة ووعد بإعطائه التصريح بذلك من المفوضية الإنجليزية، ولكن السلطان كان يخاف منه في الخارج أكثر مما يخافه في الداخل، وهو تحت سمعه وبصره فاسترضاه ورجاه في البقاء واستعان إثارة إبائه العار من الالتجاء إلى دولة أجنبية فعدل. ثم حلت المشكلة نفسها بمرضه بالسرطان في فمه ثم وفاته، وشاعت الإشاعات المختلفة حول موته من إهمال مقصود في معالجته ولاتفاق مع طبيب السلطان للتخلص منه.

وأياً ما كان فقد مات وشيعت جنازته كأقل الناس ـ لم يسر فيها إلا أفراد معدودون غلبتهم الجرأة والوفاء، ودفن كما يدفن عامة الناس، ومنعت الجرائد في الولاية العثمانية من تأبينه.

- 6 -

ما تعاليم السيد في كلمة؟ وما أغراضه في جملة؟

يقول لوثروب ستودارد الأمريكي Lothrop toddard "إن خلاصة تعاليم جمال الدين تنحصر في أن الغرب مناهض للشرق، والروح الصليبية لم تبرح كامنة في الصدور كما كانت في قلب بطرس الناسك: ولم يزل التعصب كامناً في عناصرها، وهي تحاول بكل الوسائل القضاء على كل حركة يحاولها المسلمون للإصلاح والنهضة.

"ومن أجل هذا يجب على العالم الإسلامي أن يتحد لدفع الهجوم عليه ليستطيع الذود عن كيانه، ولا سبيل إلى ذلك إلا باكتناه[1] أسباب تقدم الغرب والوقوف على عوامل تفوقه ومقدرته".

ويقول "جولد زيهر": "إن جمال الدين كان ـ كما يرى براون ـ فيلسوفاً" كاتباً، خطيباً، صحفياً؛ وفوق ذلك كان سياسياً، ويرى فيه محبوه وطنياً كبيراً وخصومه مهيجاً خطيراً؛ وكان له أثر بالغ في النزعات الشورية التي حدثت في عشرات السنين الأخيرة في الحكومات الإسلامية، وكان يرمي إلى تحرير الممالك الإسلامية من السيطرة الأوروبية، وإنقاذها من الاستغلال الأجنبي، وإلى ترقية شؤونها الداخلية بالإدارات الحرة المنظمة؛ كما كان يرمي إلى جامعة تنتظم الحكومات الإسلامية، ومنها إيران الشيعية، لتتمكن بهذا الاتحاد من منع التدخل الأوربي في شؤونها".

ويقول السيد جمال الدين عن نفسه: "لقد جمعت ما تفرق من الفكر، ولممت شعث التصور، نظرت إلى الشرق وأهله، فاستوقفني الأفغاني وهي أول أرض مس جسمي ترابها: ثم الهند وفيها تثقف عقلي، فإيران بحكم الجوار والروابط، فجزيرة العرب: من حجاز هو مهبط الوحي، ومن يمن وتبابعتها ونجد، والعراق، وبغداد وهارونها ومأمونها، والشام ودهاة الأمويين فيها، والأندلس وحمراؤها، وهكذا كل صقع ودولة من دول الإسلام وما آل إليه أمرهم. فالشرق شرق، فخصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه؛ وتحري دوائه، فوجدت أقتل أدوائه داء انقسام أهله وتشتت آرائهم، واختلافهم على الاتحاد، واتحادهم على الاختلاف. فعملت على توحيد كلمتهم، وتنبيههم للخطر الغربي المحدق بهم".

ويقول الشيخ محمد عبده: "أما مقصده السياسي الذي قد وجه إليه كل أفكاره وأخذ على نفسه السعي مدة حياته ـ وكل ما أصابه من البلاء أصابه في سبيله ـ فهو إنهاض دولة إسلامية من ضعفها،

---

[1] الاكتناه: الوصول إلى الكنه والحقيقة.

وتنبيهها للقيام على شؤونها، حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة، والدولة بالدول القوية، فيعود للإسلام شأنه، وللدين الحنيفي مجده، ويدخل في هذا تقليص ظل بريطانيا في الأقطار الشرقية".

فيكادون كلهم يجمعون على أن له غرضين واضحين:

(1) بث الروح في الشرق حتى ينهض بثقافته وعلمه وتربيته وصفاء دينه، وتنقية عقيدته من الخرافات، وأخلاقه مما تراكم عليها، واستعادة عزته ومكانته.

(2) مناهضته الاحتلال الأجنبي حتى تعود الأقطار الشرقية إلى استقلالها مرتبطة بروابط على نحو ما، لتتقي الأخطار المحدقة بها.

كان في حياته يحمل في يديه العلمين معاً. فلما مات تفرق العلمان وتداولهما المصلحون بعد، كل منهم يحمل أحد العلمين ـ هذا أو ذاك ـ لا يجمع بينهما.

فالشيخ محمد عبده مثلاً ـ أكبر تلاميذه وأقدرهم، خلفه حمل العلم الثقافي لا السياسي. لقد تبين بعد أن اشتغاله بالسياسة في العروة الوثقى ونحوها إنما كان مدفوعاً إليه بقلب جمال الدين لا بقلبه هو، ولذلك اقترح عليه بدل إنشاء الجريدة إنشاء مدرسة للزعماء كما تقدم. فلما استقل بنفسه كان عمله في بيروت عملاً تعليمياً صرفاً، ولما عاد إلى مصر كان برنامجه التعليم والتثقيف بأوسع ما يستطيع وأتمه، ولذلك اقترح على أولى الأمر بعد عودته أن يعين ناظراً لدار العلوم أو أستاذاً فيها، فخشوا من اتصاله بالتلاميذ لتاريخه الماضي، وعينوه قاضياً أهلياً ليكونوا بمأمن من جانبه، بل رأيناه يلعن في كتاباته السياسة وحروفها ومشتقاتها كراهية لها، بل رأيناه يصرح بأن الواجب الأول على المصلح تثقيف الشعب وتهذيبه، ثم الاستقلال يكون الخاتمة، بل رأيناه يضع خطة إصلاحه بأن يتعاون مع الإنجليز ويصادقهم، ويتفاهم معهم لينال منهم ـ بأقصى ما يستطيع ـ إعانته فيما ينشد من إصلاح داخلي تثقيفي. وهذا سبب ما كان بينه وبين "مصطفى كامل" والحزب الوطني من خصومة، بل ربما كان هذا سبباً أيضاً فيما نلاحظه من بعض الفتور في العلاقة بينه وبين أستاذه

السيد جمال الدين، فقد كتب من مصر للسيد ـ وهو في الأستانة ـ كتاباً غفلا من الإمضاء وتلميحاً لبعض الأشخاص من غير ذكر أسمائهم، فهاج السيد وكتب إلى الشيخ محمد عبده جواباً من نار على هذا التصرف، يؤنبه فيه على الجبن والخوف، ويقول: "تكتب ولا تمضي وتعقد الألغاز؟.... أمامك الموت، ولا ينجيك الخوف... فكن فيلسوفاً يرى العالم أُلعوبة، ولا تكن صبياً هلوعاً". ولعل هذا آخر ما كان بينهما من تواصل.

وما كان بالشيخ محمد عبده من جبن، ولكن الجسم الملتهب يشعر بالجسم المعتدل بارداً، وقد كتب السيد جوابه هذا وقد ملكته الحدة، وكم ملكته !

على كل حال اختط الشيخ محمد عبده لنفسه خطة اقتنع بها كل الاقتناع، وهي رفع أحد العلمين دون الثاني، فأخلص لمبدئه، وبذلك في ذلك جهده وصحته وعقله وماله، واتجه إلى كل نواحي الثقافة يغذيها وينميها ويصلح بقدر ما يستطيع إنسان أن يعمل.

أما الذين رفعوا العلم الآخر ـ علم مناهضة الحكم الأجنبي ـ فهم عبد الله نديم، ثم مصطفى كامل وفريد، ثم سعد زغلول، فساروا على مثل دعوة السيد جمال الدين، مستخدمين ما استجد من أساليب. وما استعمله العرب من وسائل.

هذا في مصر ومثله في سائر أقطار الشرق، من زعماء حملوا لواء الإصلاح الثقافي، وزعماء حملوا اللواء السياسي مما يطول ذكره، وقد تعرض ـ فيما نكتب بعد ـ ببعضه. ولو انتبه "السيد" اليوم من رقدته لحمد من الشرق سيرته، وإن كان أكبر الظن أنه يحتد عليه لبطئه، فقد كان ـ رحمه الله ـ حاراً حاد المزاج، لا يرضيه من الإصلاح السير على الأقدام ولا ركوب القطارات، بلا لا يرضيه بعض الرضا لا ركوب الطائرات وحرب الدبابات. يقول الشيخ محمد عبده في وصفه: إنه طموح إلى مقصده السياسي، إذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول إليه، وكثيراً ما كان التعجل علة الحرمان...

وهو شجاع مقدام، لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه، إلا أنه حديد[1] المزاج، وكثيراً ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة".

ثم كان أشبه الناس في سياسته بعلى لا بمعاوية، كانت سياسة معاوية عنوانها: "إنا لا نصل إلى الحق إلا بالخوض في كثير من الباطل". أما "على" فلا يريد الخوض في الباطل ليصل إلى الحق، بل لا يريد إلا الحق من طريق الحق، وإلا فلا كان. وهكذا كان جمال الدين. قال الشيخ محمد عبده: "ماذا كان يضر السيد لو مهد لإصلاحه ـ وهو في الآستانة ـ بالسعي عند السلطان في إعطاء أبي الهدى الصيادي خمسمائة جنيه ونيشاناً لابنه أو لأخيه، فإذا رأى أبو الهدى أن "السيد" يخدمه فإما أن يواتيه، وإما ألا يناويه[2]. ولكن أنى للسيد أن يطلب هذا الباطل وهو يعتقد أن أبا الهدى سافل دنيء إذا طلب له شيئاً فالشنق؟

ولما كان السيد يحكي لخاصته إقناعه للسلطان بأن حادثة الخديو عباس دسيسة، وأن السلطان اقتنع بذلك،وأخبره أن هذا من دسائس أبي الهدى، قال له عبد الله نديم: ليتك عندما صرح السلطان بذلك ذكرت له دسائسه وضرره.

فغضب عند ذلك جمال الدين، وقال: "أعوذ بالله أن أكون من المنافقين، أو أن أفعل ما أنكره على الغير، أو أن أكون همازاً مشاءاً بنميم[3]".

وهكذا يريد الحق غاية، ويريد الحق وسيلة، والدنيا علمتنا أن سياسة معاوية هي التي نجحت وأن سياسة الدنيا تقوم على المصالحة وأخذ شيء بترك شيء. فمن أراد الحق كاملاً وإلا فلا، فلينشد ذلك في

---

[1] حديد فيه حدة، أي شدة واهتياج.

[2] يناويه: يناوئه، أي يعاديه.

[3] همار ـ يغمز ويعيب. مشاء بنميم: يسعى بالوشاية ويشيع المعايب.

المثل الأعلى للخلق لا في السياسة، أو فلينتظر حتى تخضع السياسة للخلق.

***

بقيت مسألة هامة في تاريخ السيد، وهي اتهامه بالإلحاد، وقد أشرنا إليها من قبل. ولرمى السيد بالإلحاد تاريخ طويل، فقد رمى به في الأستانة عند زيارته لها أول مرة، إذ خطب في دار الفنون خطبة ذكر فيها أن المعيشة الإنسانية أشبه شيء ببدن الحي، وأن كل صناعة بمنزلة العضو، فالملك كالمخ، والحدادة كالعضد، والزراعة كالكبد... الخ، ولا حياة للجسم إلا بالروح، وروح المعيشة الإنسانية النبوة والحكمة.

فاتهموه بالإلحاد لهذا، وشنعوا عليه بأنه يقول إن النبوة صناعة، وشغبوا عليه، حتى نصح له بالخروج من الأستانة.

فلما جاء إلى مصر اتهمه بعض العلماء كالشيخ عليش وبعض العامة بالإلحاد، والإلحاد في نظر هؤلاء وأمثالهم شيء هين. يكفي ألا يسير سيرتهم، ولا يلبس لباسهم، وأن يدخن السيجار، ويجلس في المقهى، ويلتف حوله بعض اليهود والنصارى، ليحكموا عليه بالإلحاد، وكما أن عقيدة كل إنسان لها لون خاص، فكذلك تصوره للإلحاد يتكيف بذهنه.

ثم لما ترجم سليم بك عنحورى للسيد جمال الدين في كتابه "سحر هاروت" رمى السيد أيضاً بالإلحاد فقال: "إنه برز في علم الأديان حتى أفضي به إلى الإلحاد والقول بقدم العالم، زاعماً أن الجراثيم الحية المنتشرة في الفضاء ترقى وتتحور[1] إلى ما نراه من أجرام، وأن القول بوجود محرك أول حكيم وهم نشأ عن ترقي الإنسان في تعظيم المعبود على حسب ترقيتهم المعقولات..."الخ.

---

[1] تتحور، تستدير.

وقد قابله الشيخ محمد عبده وعاتبه على نشره مثل هذا القول من غير تحر وتدقيق، فكتب سليم بك في الجرائد يصحح فيه قوله، ويقول: إني قابلت الشيخ محمد عبده، فأوضح بدلائل ناهضة وبراهين داحضة، أن ما تتناقله الألسن من هذا القبيل ما كان إلا ن آثار الحسد،وأن السيد كان في أثناء مناظراته الجدلية يشرح النحل والبدع وأقوال المعطلين شرحاً وافياً، ثم يقيم الحجج على بطلانها، فلعل سامعاً سمع منه هذا القول في مثل هذا الموقف فنسبه إليه؛ وقال: إنه لم يسمع من السيد هذا الكلام، وإنما تلقاه عن بعض المصريين والسوريين.

ونقل كلاماً للسيد اطلع عليه في وجوب الدين، وضرورة الاعتقاد بالألوهية، ومزايا الإسلام، وختم مقاله بقوله: "إننا سارعنا لإذاعة هذا، شأن المؤرخ العادل، وقياماً بحق الأدب، وضنا بفضل هذا الرجل الخير من أن تناله ألسنة من لا يعرفونه خطأ وافتراء. والله يتولى الصادقين".

ثم رأينا ما اتهمه به "رينان" بعد ما جالسه في باريس فكتب كلمته التي ذكرناها من قبل، وهذا أدق موقف؛ فرينان فيلسوف واسع الذهن دقيق التعبير، لا يلقي الكلام على عواهنه، خصوصاً وقد ورد في رد السيد جمال الدين عليه ما يفيد أنه سلم للمسيو رينان بأن الإسلام كان عقبة في سبيل العلم.

ولكن في رأيي أن السيد عبر تعبيراً غير دقيق في تفرقته بين طبيعة الدين الإسلامي وسيرة المسلمين، خصوصاً أنه أخذ على رينان تقصيره في أنه لم يبحث هل هذا الشر نشأ عن الديانة الإسلامية نفسها، أو عن الصورة التي تصور بها الإسلام، أو عن أخلاق بعض الشعوب التي اعتنقت الإسلام؟ وقراءتنا لرده تشعرنا بأنه وقع في هذا اللبس، وأنه كان يدور حول فكرة أن للدين دائرة، وللعلم دائرة؛ ويجب أن يسبح كل في دائرته من غير طغيان، وأن الدين يجب ألا يعارض العلم فيما ثبتت صحته علمياً ـ وهذه الآراء الواضحة في ذهننا الآن، والواضحة في تعبيرنا، لم ترد واضحة في رده، فكان رداً مهوشاً، كما كانت محاضرة رينان نفسها كذلك.

وليس من شك في أن السيد كان حر التفكير قوياً على الجدل، متشعب طرائق الحجج، فمن الممكن جداً أن يكون في مجالسه مع رينان تبجح[1] في بعض الأقوال التي من هذا القبيل، والتي تحدث الكثير من كبار المفكرين في بعض اللحظات، فحكم رينان عليه هذا الحكم الشامل خطأ.

ثم كان "السيد" كما يحكى عنه الشيخ محمد عبده وبعض خاصته، متصوفاً يدين بعقيدة المتصوفة، وهي مبهمة غامضة تنتهي بوحدة الوجود، والتعبير عنها قد يلتبس ـ إلا على الخاصة ـ بالإلحاد، ومن أجل هذا رمى محيي الدين بن عربي وأمثاله بالكفر لعدم الدقة في وزن الأقوال.

إن حياة "السيد" مملوءة بالدعوة الحارة إلى الدين، وإلى التوحيد،في كتاباته في "الرد على الدهريين" وفي العروة الوثقى، وفي مجالسه الخاصة.

يذكر بعض خاصته أنه سمع رجلاً كبيراً تكلم كلمة في حق النبي. فأمر "السيد" من معه من الأفغانيين بضربه، فضربوه حتى خرج يزحف.

وحكي المخزومي مجلساً شهده، إذ زار رجل جمال الدين في بيته في الأستانة وجرى الحديث فقال هذا الرجل: "إني قرأت كتب الفلاسفة فثبت لي ان الله غير موجود ولا يعتقد به إلا حيوان". فضاق صدر السيد ولم يجبه، ودعا الحاضرين إلى حديقة البيت وكان فيها أنواع من الطيور والدجاج، فتصايحت الديكة وغردت الطيور، فقال السيد: "كيف لا يفضل أضعف حيوان أعجم يذكر الله إنساناً ناطقاً ينكر وجود الله؟! كيف يجرؤ على إنكار واجب الوجود من يأكله الدود؟ إذا لم يتعظ الإنسان بما فوقه من أجرام فليتعظ بما تحته من رفات الأجسام!" فخرج الرجل الملحد خجلاً من غير أن يودع.

---

[1] تبجح: توسع وتبسط.

لا يمكن أن تصدر هذه الكتابات وهذه الأقوال وهذه الغيرة من ملحد، إلا أن يكون قد بلغ الغاية في التصنع والنفاق. ولم يكن عيب جمال الدين نفاقه، إنما كان عيبه إفراط في صراحته وعدم استطاعته كتمان ما يعتقد، ويقول: "لا يكون الكمال النسبي في البشر إلا متى كثر إعلانهم وقل كتمانهم".

وأكثر متاعبه في الحياة كان سببه جهره بما يصح أن يكتم وإعلانه ما يجب أن يسر، فأخلاقٌ مثل هذه تؤكد أنه لو كان السيد ملحداً يرى الحق والخير في الإلحاد لدعا إليه في صراحة وجرأة وشجاعة من غير ما مواربة ولا إيماء.

لقد كان يؤمن بالأصول، ويترك لعقله الحرية في الفروع، ويصل في ذلك إلى نتائج غريبة من أذهان الجامدين المتزمتين، فيُرمى بالإلحاد، فكان ينفر من التقليد ويدعو إلى الاجتهاد، ويذكر في مجلسه قول للقاضي عياض ويتمسك به راووه فيقول (السيد): "سبحان الله! إن القاضي عياضاً قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله وتناوله فهمه، وناسب زمانه، أفلا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق وأوجه وأصوب من قول القاضي عياض وغيره من الأئمة؟

إذا كان القاضي عياض وأمثاله سمحوا لأنفسهم أن يخالفوا أقوال من تقدمهم فاستنبطوا وقالوا ما يتفق وزمانهم، فلم لا نستنبط ونقول ما يوافق زماننا؟

"ما معنى باب الاجتهاد مسدود، وبأي نص سد، أو أي إمام قال لا يصح لمن بعدي أن يجتهد ليتفقه في الدين، ويهتدي بهدى القرآن وصحيح الحديث والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمان وأحكامه؟!

"إن الفحول من الأئمة اجتهدوا وأحسنوا، ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن، واجتهادهم فيما حواه القرآن ليس إلا قطرة من بحر، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده".

ويرى أن التفرقة بين أهل السنة والشيعة أحدثتها مطامع الملوك لجهل الأمة، وجميعهم يؤمنون بالقرآن ورسالة محمد، ففيم الخلاف؟ ولم القتال؟.

ويقول: إن الأديان الثلاثة كلها أساسها واحد، وإنما يوسع شقة الخلاف بينها اتجار رؤساء الأديان بها.

ويفيض في اشتراكية الإسلام ويقارن بينها وبين اشتراكية الغرب، فيرى أن اشتراكية الغرب بعث عليها جور الحكام وعوامل الحسد في العمال من أرباب الثراء. أما الاشتراكية التي كانت في الإسلام فملتحمة مع الدين، ملتصقة مع الخلق، باعث عليها حب الخير، كما في أعمال عمر وأبي ذر.

ويعرض في مجلسه للحديث عن الرجل والمرأة والسفور والحجاب فيطيل القول في ذلك وخلاصة رأيه أن المرأة في تكوينها العقلي تساوي الرجل، فليس للرجل رأس وللمرأة نصف الرأس، والتفاوت الذي بينهما لم يأت إلا من التربية وإطلاق السراح للرجل وتقييد المرأة للبيت ولتربية الجيل، ومهمتها في هذا أهم وأسمى مما يقوم به الرجل من كثير من الصناعات؛ ويخطئ من يطلب مساواة الرجل بالمرأة في كل شيء فلكل وظيفته، وعلى تعاونهما ـ كل في عمله ـ يقوم المجتمع، ولا مانع أن تعمل المرأة في الخارج إذا فقدت عائلها واضطرتها ظروفها إلى ذلك، ولكن بنية صالحة وذيل طاهر. ثم قال: "وعندي أن لا مانع من السفور، إذا لم يتخذ مطية للفجور".

ويقول: "إن الدين لا يصح أن يخالف الحقائق العلمية، فإن كان ظاهرة المخالفة وجب تأويله. وقد عم الجهل وتفشى الجمود في كثير من المتردّين برداء العلماء، حتى اتهم القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية الثابتة؛ والقرآن بريء مما يقولون، والقرآن يجب أن يحل عن مخالفة العلم الحقيقي خصوصاً في الكليات".

والسيد واسع الصدر، ينقد "شيلي شميل" في آرائه المتحدة التي جاوز فيها مذهب "داروين" ومع ذلك يقدره لصبره على البحث

وجرأته في الجهر بما يعتقد ولو خالف الناس. وهكذا وهكذا مما يراه المتزمتون خروجاً من المألوف، فما أقرب ما يقذفون بكلمة الإلحاد!.

سنة مألوفة في السكون، لا يأتي مصلح سابق لزمنه إلا رمى بالزندقة أو الكفر أو الجنون، ثم أوذى ممن يسعى في الخير لهم، وممن يضحى بسعادته لسعادتهم، ولا يقدر حق قدره إلا بعد أن يهدأ الحسد بموته، وتتجلى صحة دعوته بعد زمنه.

***

لقد قصدت الأستانة سنة 1928 بعد وفاته بإحدى وثلاثين سنة، فرأيت واجباً أن أزور قبر هذا الرجل العظيم، وأستعيد عنده ذكرى عظمته وسلسلة أعماله، فسألت عنه الكثير فلم يعرفه، ورأيت رجلاً أفغانياً يعمل خازناً لمكتبة الشهيد علي، فوصف مكانه لي، فذهبت مع صديقي "العبادي" عصر يوم الأحد 8 يولية إلى "ماجقة" أو "متشكة" فوجدت في ربوة على مدخل البوسفور مقبرة قد انتثرت فيها المدافن، ودلنا شيخ المقبرة على مدفن السيد، فعلمنا أن قبره كان قد تشعث ولم يعن به أحد، وكادت تضيع معالمه، ولم يفكر فيه أحد من أهل الشرق الذين أفنى فيهم حياته، إنما ذكره مستشرق أمريكي حضر إلى الأستانة سنة 1926 ونقب عن قبره حتى وجده، فبنى عليه تركيبة جميلة من الرخام وأحاطها بسور من حديد، وكتب على أحد وجوه التركيبة اسم السيد وتاريخ ولادته ووفاته وفي وجه آخر كتابة تركية ترجمت لنا كما يأتي "أنشأ هذا المزار الصديق الحميم للمسلمين في أنحاء العالم، الخير الأمريكاني المستر شارلس كرين سنة 1926".

وقفنا على قبره، وقلت رقد هنا محيي النفوس، ومحرر العقول، ومحرك القلوب، وباعث الشعوب، ومزلزل العروش، ومن كانت السلاطين تغار من عظمته، وتخشى من لسانه وسطوته، والدول ذات

الجنود والبنود[1] تخاف من حركته، والممالك الواسعة الحرية تضيق نفساً بحريته.

هنا خمد من كان يشعل النار حيث كان، في الأفغان، في مصر في فارس، في باريس، في لندرة في الأستانة.

هنا باذر بذور الثورة العرابية، ومؤجج النفوس للثورة الفارسية، ومحرك العالم الإسلامي كله لمناهضة الحكومات الأجنبية، والمطالبة بالإصلاحات الاجتماعية. هنا من حارب الحكم الاستبدادي في مصر، وناصر الدين في فارس وإنجلترا وفي باريس، وحارب الجهل والأمية والذل في الشرق، والجاسوسية في الأستانة، ولم ينتصر عليه شيء إلا الموت.

لقد أجللناه وأعظمناه، والتهبت نفوسنا لذكراه، فكيف كان محضره ومرآه، رحمه الله.

بعض ما أثر عنه:

جمع محمد باشا المخزومي بعض ما دار في مجالسه واستشار الأستاذ في اسمها، فقال: سمها"خاطرات". فقال المخزومي: إن بعض الأصدقاء نبهني إلى أن هذه اللفظة غير صحيحة في اللغة، والأقرب للصواب أن نسميها "خطرات" أو "خواطر" فقال: قل "خاطرات" ولا تبال بمن فسد لسانهم ولا يصلحون إلا للأجوف والمهموز، ولا يحسنون جملة تنقر حبة القلب أو تطرب السمع.

ولما جاء مصر أعجبه برنامج الماسونية من دعوة إلى "الحرية والإخاء والمساواة" فانضم إليها، وعرض عليهم في المحفل يوماً إعانة لأحد الإخوان، فسأل "الأستاذ": هل الأخ مريض؟ قالوا: لا

---

[1] البنود: الرايات.

قال: هل هو صحيح البنية؟ قالوا: نعم. فقال "صحة البدن وذو السؤال لا يصح أن يجتمعا الإنسان".

ولما أخرج من مصر ذهب بعض محبيه إلى السويس يحملون له مقداراً من المال عرضوه عليه وسألوه أن يقبله قرضاً، فقال لهم: "أنتم إلى هذا المال أحوج، والليث لا يعدم فريسته حيثما ذهب".

ولما استدعاه السلطان عبد الحميد إلى الأستانة سنة 1892 ووصل إليها، كان في انتظاره الياور السلطاني، فسأله: أين صناديقك أيها السيد؟ فقال: ليس يعي غير صناديق الثياب وصناديق الكتب. فقال الياور: حسناً! أين هي؟ فقال السيد: صناديق الكتب هنا (وأشار إلى صدره) وصناديق الثياب هنا (أشار إلى جبته).

وقد قال: "كنت أول عهدي أستصحب جُبَّة ثانية، ولكن لما توالى النفي صرت أستثقل الجبة الثانية، فأترك التي على إلى أن تخلق[1] فأستبدل بها غيرها".

وكان يجالس السلطان عبد الحميد كثيراً، فسئل عن رأيه فيه، فقال: "إن السلطان عبد الحميد لو وزن بأربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم: ذكاء ودهاء وسياسة، خصوصاً في تسخير جليسه... ولا عجب إذا رأيناه يذلل ما يقام في ملكه من الصعاب من دول الغرب، ويخرج المناوئ له من حضرته راضياً عنه وعن سيرته، مقتنعاً بحجته، سواء في ذلك الملك والأمير والوزير والسفير، ولكن يا للأسف عيب الكبير كبير، والجبن من أكبر عيوبه".

وعرض عليه السلطان عبد الحميد منصب مشيخة الإسلام، فأبى إلا أن يعمل عمل أساسي يتغير به النظام الحاضر، وقال: "إن وظيفة العالم ليست بمنصب ذي راتب، بل بصحيح الإرشاد والتعليم، ورتبته ما يحسن من العلوم مع حسن العمل بالعلم".

---

[1] تخلق: تبلى.

وعاش مجال الدين عزباً طويل حياته، وكان كلما شكا له أحد كثرة العيال وقلة ذات اليد يعينه على قدر استطاعته، فعرض عليه السلطان يوماً أن يزوجه جارية حسناء من قصر يلدز، فامتنع السيد من ذلك، فسئل: هل تؤيد رأي أبي العلاء:

هذا جناه أبي عليَّ وما جنيتُ على أحد

قال: كلا، كيف يصح لعاقل أن يعتبر الزواج جناية وبه بقاء النوع واستكمال حكمة العمران؟ أما أنا فمعرفتي بما تتطلبه الحكمة الزوجية من معاني العدل، وعجزي عن القيام به، دفعني أن أتقي عدم العدل ببقائي عزباً".

فقال له طبيب يهودي كان من خاصته فهل تفادياً من الخوف من عدم العدل يجوز أن يخالف الإنسان طبيعته؟ فتبسم السيد وقال له: "إن الطبيعة أحكم منك، فهي تدبر نفسها، ومن ترك شيئاً عاش بدونه".

قيل له: إنك تقبل من السلطان عطاءه من المال، فلم لا تقبل عطاءه من الجواري الحسان؟

قال: أما المال الذي يعطينيه فإني أجد له ـ على قدر اجتهادي ـ أكفاء يقومون بأداء الواجب نحوه، وأما الزواج بالجارية الحسناء فما أنا بالكفء لها، ولست بوليها لأتحرى لها كفؤها.

وكان السيد جمال الدين كثير الإعجاب بذكاء الشيخ محمد عبده وفضله، وكان كلما ذكره يقول: "صديقي الشيخ، وكان السيد عبد الله نديم في آخر أيامه يكثر من التردد على منزل جمال الدين، فقال له يوماً: قد أكثرت من الثناء على الشيخ محمد عبده كأنه لم يكن لك صديق غيره، وتنعت غيره بقولك صاحبنا، و"فلان من معارفنا، فتبسم السيد جمال الدين وقال، "وأنت يا عبد الله صديقي ولكن الفرق بينك وبين الشيخ أنه كان صديقي على الضراء، وأنت صديقي على السراء، فسكت النديم.

وكان جمال الدين يهزأ بمبدأ "داروين" الذي يعنون "بتنازع البقاء"، ويقول: إن المبدأ هو تنازع الفناء، ويقول: إن البقاء الذي ينبغي أن يطلب ولا يعتريه فناء ليس فيه تنازع، ولا نزاع، والتنازع القائم الآن إنما هو على أشياء تفنى، والمنتزع والمنازع والمنزوع منه سواء في المصير إلى الفناء، فكان الأولى أن يقال: تنازع الفناء".

قيل له: وهل يُجمع العالم للتمدن كله على مثل هذا الخطأ؟

فقال: وما العالم المتمدن؟ هل رأينا غير مدن كبيرة وأبنية شامخة وقصور مزخرفة ينسج فيها القطن والحرير بأصباغ كيماوية مختلفة ألوانها، ومعادن ومناجم، واحتكار تجارات أتت لهم بثروات؛ ثم هل غير التفنن في اختراع المدافع المروعة والمدمرات والقذائف وباقي المخربات القاتلات للإنسان، وتتبارى فيها تلك الأمم الراقية المتمدنة اليوم؟

لو جمعنا كل تلك المكتسبات العلمية، وما في مدنيات تلك الأمم من خير، وضعناه أضعافاً مضاعفة ووضعناه في كفة ميزان، ووضعنا في الأخرى الحروب وويلاتها، لكانت كفة العلوم والمدنية والتمدن هي التي تنحط وتغور، فالرقى والعلم والتمدن على ذلك النحو إن هو إلا جهل محض، وهمجية صرفة، وغاية التوحش؛ فالإنسان في ذلك أحط من الحيوان.

هل سمعت أن ثلثمائة ألف أفعى وقفت تجاهها مثلها وتقلبت بينها الأنياب وقاتل بعضها بعضاً؟ أو هل وقفت الأسود صفوفاً وتناهشت لحومها وسالت دماؤها؟ فليس ثمة مدنية ولا علم، ولكن جهل وتوحش.

***

وللسيد جمال الدين كلمات حكيمة كان يقولها في مناسباتها.

كان إذا أقسم قال: "وعزة الحق وسر العدل" ـ الحقائق لا تزول بالأوهام ـ من سفه الرأي أن يعتقد الرجل أفضليته على الغير بالعمر والمشيب فقط ـ الفخر بالقول المجرد يبطله المجد بالفعل ـ لا يؤمن بِرُبُوبيَّة القوة إلا شبح الضعف ـ الأكفاء في العصر لا يكونون

على الغالب أصدقاء ـ تطويل المقدمات دليل على سقم النتائج ـ من رهب الملوك لغير جريرة فهو الصعلوك ـ صاحب الحاجة إذا لم ينطبق بحاجته أولى بالخرس ـ ألف قول لا يساوي في الميزان عملاً واحداً ـ إسراف الإنسان بصحته أضر من إسرافه بثروته ـ بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة ـ القبة الجوفاء لا ترجع إلا الصدى ـ شر الأزمنة أن يتبجح الجاهل ويسكت العاقل ـ الأديب في الشرق يموت حياً ويحيا ميتاً ـ قيد الأغلال أهون من قيد العقول بالأوهام ـ القوي من الشجر لا يعجل بالثمر ـ (اللغة) العربية وسعها البدو في البراري والقفار، وضيقها الحضر في المدن والأمصار ـ العلم قد يكون في الأحداث، ولكن التجارب لا تكون إلا في الشيوخ.

مدحت باشا
(1238-1301هـ)
(1822-1880م)

وهذا مصلح آخر من جنس آخر: محمد بن عبد الوهاب مصلح ديني، وهذا مصلح اجتماعي، ذاك في نجد، وهذا في استنبول؛ ذاك لا شأن له بالسياسة ولا المدينة الحديثة، إنما همّه إصلاح العقيدة؛ وهذا منغمس في السياسة لا مشكلة أمامه غيرها، ذلك برنامج إصلاحه الرجوع إلى عهد الرسولρ وصحابته لنعتقد ما يعتقدون، ونعمل ما يعملون، ونترك ما يتركون، وهذا يرى الإصلاح في الرجوع إلى المدينة الحاضرة ومناهجها في الأمم الحية لنختار منها ما يصلح لنا ويتفق وموقفنا، دارسين في إمعان كيف شق الأوروبيون طريقهم إلى الحياة الاجتماعية والسياسية، وكيف تعثروا وكيف نهضوا، فنتعلم من خطأهم وصوابهم، ونقتبس خير ما أنتجته عقولهم.

***

لقد ولد في عهد السلطان محمود، ونضج شبابه في عهد السلطان عبد المجيد، وبدأت كهولته في عصر عبد العزيز، وانتهت في عهد عبد الحميد.

جاء والدنيا مدبرة عن الدولة العثمانية، وحركة الجزر تلي حركة المد، والمملكة تنقص من أطرافها، ويدب الفساد في داخلها.

يقع الظلم على سكانها المسلمين والنصارى على السواء، ولكن المسلمين ينادون بالإصلاح في هدوء وإشفاق، والنصارى من ورائهم أمم تحميهم، وتتخذ ظلمهم وسيلة للتدخل في شؤون الدولة بدعوى حمايتهم، والعمل على تحريرهم، فأصبحت الدولة وكلَّ يوم تُقتطع منها ممالك، وكل يوم تُعقد معاهدات تنقص حقوقها وتُفرَض عليها بالتهديد والوعيد.

حكام في كل ولاية لا يحكمون البلاد بعقول ضيقة وشهوات واسعة، تَرَف في المظهر، وسَخَف في المخبر؛ لا يقيدهم قانون ، ولا يردعهم عدل، ولا يرون للشعوب حقاً إلا أن تؤمر فتطيع، وتُنتهب فتصبر، بل لا يكفيهم الصبر، على المصيبة، وإنما يتطلبون المدح والثناء عليهم في ظلمهم وطريقة حكمهم، فمن امتعض من ذلك فهو تأثر، ومن شكا فهو كافر؛ فأورث ذلك الهجرة عند من احتفظ بإبائه، والذل والهوان عند من لَصِق بأرضه.

لا عناية بصحة ولا تعليم، فالأمراض فاشية والجهل عميم، والمسلمون في ذلك أسوأ حالاً من المسيحيين، لأن الجمعيات المسيحية في الأمم العربية تعين مسيحيي الشرق بفتح المدارس لهم، ونشر التعليم بينهم، والمسلمون حائرون بين إقدام على التعلم في هذه المدارس مع التعرض لما يمس دينهم، وبين الاحتفاظ بدينهم ومعه الاحتفاظ بجهلهم.

والفقر ضارب أطنابه[1] بين الشعوب لضعف وجوه الاستغلال، فلا زراعة صالحة، ولا صناعة ناجحة، فهذه كلها تدار بيد أضعفها الفقر، وعقل أضرَّه الجهل. وعقيدة أفسدها التخريف؛ ثم عدم اكتراث الناس لما تتجه أيديهم وأرضهم، إذ ليس يحميه عدل حكامهم.

الجنود في الدولة لا تزال قوية شجاعة على رغم كل ذلك، تحتقر الموت وتستعذ به، وحالتها المعنوية عالية رفيعة، ولكن لا نظام لها على النمط الحديث، ولا نظام في الإمداد بالآلات والعُدد والغذاء، فإن انتصروا في بعض المواقع فبفضل قوّة إيمانهم وسمو روحهم، وعلى الرغم من سوء تغذيتهم، وضعف عدتهم، وتلك حال لا تبشر بخير دائم، والأمم الحية حولهم كل يوم تُعد جديداً من الآلات وتستكمل نقصاً في النظام، وتتخذ الأساليب الخفية والظاهرة في الظَفَر بالأعداء؛ فكيف ينفع بقاء القديم وسير الأمور في مجراها العتيق؟

وهذه الدول من حولها أحست ضعفها، وشعرت بدنو أجلها، فهي كل يوم تنصب الشباك حولها، وتتقن صنعها في دقة ومهارة، ولكل دولة أساليبها في الحبائل، وطرقها في الصيد، وكل دولة تصطنع من الدولة رجالاً هم عيونها وعُدّتها ووسائلها.

والمملكة خليط من عناصر شتى يختلف جنسها، وتختلف لغتها، ويختلف دينها، ولكل عنصر هوى، ولكل جنس أسباب متصلة بأمم أخرى تستهويها وتستنجدها.

فلا المالية صالحة، ولا الإدارة صالحة، ولا الجيش صالح، ولا الأمة متحدة النوازع والآمال والآلام.

وزاد الأمر سوءاً أن السلطان عبد العزيز جاء ناقماً على الحالة التي وصلت إليها الأمة، وانتقد أخاه عبد المجيد في تصرفاته، وفي إسرافه في شهواته، وفي تبذيره للمال، وعدم نظره إلى شؤون الدولة

---

[1] ضارب أطنابه: مطبق. والأطناب: حبال الخيمة.

كما ينظر إلى نفسه، فأعلن أنه آت لإصلاح المفاسد، والأخذِ بيد الشعب، والاقتصار على زوجة واحدة، والاقتصاد في نفقات الحريم، ولكن سرعان ما تبددت هذه الوعود، وخطا في سبيل البذخ[1] والترف والنعيم والإسراف أضعافَ ما كان ينتقده من أخيه! وارتكب في عهده غلطتين كبيرتين: تقويته عواطف رعاياه المسلمين في أنهم أولى بالتفضيل في مزايا الدولة في المعاملة والمناصب ونحو ذلك، وأن ليس يصح أن يساويهم برعاياه المسيحيين في ذلك؛ فأوقد بذلك شعور البغضاء والحقد وحب الانتقام بين عناصر الأمة الواحدة، ومهّد الطريق للدولة الأوروبية أن تتدخل في حماية أهل دينها.

والغلطة الثانية: وقوعه في الدّين من المصارف الأجنبية لقلة دخل الدولة وكثرة إسرافه. نعم، إن بعض هذا المال أنفق في إصلاح الجند والبحرية، ولكن كثيراً منه أنفق في بناء قصوره الكثيرة الفخمة وما تحوي من أسباب الترف والنعيم ـ مع أنه لما أراد سعيد باشا والي مصر الإستدانة بعث إليه بكتاب طويل مملوء بكل الحجج التي يمكن أن تقال في سوء عاقبة الاستقراض وضرره بالممالك ـ فكان هذا أيضاً وسيلة من وسائل التدخل الأجنبي، هذا إلى اعتداده بنفسه، واستبداده برأيه، وتركيز أعمال الحكومة كلها في شخصه، فهو مرجع كل شيء، ولا يسمع نصيحة ناصح، ولا رأي مجرّب، ويخشى الذكاء والعلم والثقافة الواسعة ومعرفة بواطن الأمور، لأنها كلّها تؤدي إلى مراقبة أعماله ومحاسبته على إسرافه.

وجاء السلطان عبد الحميد فزاد في الطَّنبور نغمة بل نغمات: لقد لعب خوفه على شخصه برأسه، وقد سمع من التاريخ أن كثيراً من أجداده خلعوا أو قتلوا، وهذا بالأمس القريب عبد العزيز خلع وقيل قتل، فليحذر أن يُمثَّل به هذا الدور. ثم ذكاء نادر، ومال كثير، وسلطان كبير، كل هذا يوجّه للمحافظة على شخصه أن يُمس بسوء، فلا تذكر الملة والأمة في الصحف والمجلات، بل تذكر "الذات

---

[1] البذخ: التعاظم.

الشاهانية" متوجه بالألقاب الضخمة الفخمة، فهو السلطان الأعظم، والخاقان الأفخم، وسلطان البرّين والبحرين، وإمام الحرمين الشريفين، وهو ظل الله في أرضه، المحفوف بألطافه الصمَدانية، وعنايته الربانية.

ويصادر الكتاب إذا كان فيه "الأئمة من قريش" وتمنع "العقائد النسفية" من الطبع لأن فيها فصلاً في الإمامة وشروط الخلافة، وكل كتاب يطبع في الشام أو العراق أو الأستانة لابدّ له من "رخصة جليلة"، ويجمع كتاب كان يدرس في "مكتب الحقوق" ويحرق لأنه وردت فيه جملة مضمونها أنه إذا اختلت دولة من الدولة يكون للدولة المجاورة الحق في طلب إصلاحها.

وخطيب الجمعة يتحرّى الحديث الذي يذكره في الخطبة، فلا يكون مما ينهى عن ظلم، ولا مما يشير إلى حق رعية على راع، ولا نحو ذلك، ولذلك يغلب أن يكون الحديث: "إن الله جميل يحب الجمال".

والجواسيس لا عِداد لها، والجاسوسية سبيل الارتقاء، وعشرة آلاف جندي يقفون للمحافظة على حياة السلطان وإظهار أبّهته وجلاله إذا خرج للصلاة يوم الجمعة، والقصر مملوء بالمشعوذين والدجالين من المشايخ يختلقون رؤيا يزعمون أنهم رأوها، أو يفسرون حلماً، أو يوقعون بمن يقف في سبيل دجلهم. والأمور تدار، والمشاكل السياسية تحل، بمثل هذه الرؤى، وآراء هؤلاء الطّغام[1].

في هذه الأجواء عاش مدحت باشا وكافح وجاهد حتى مات.

ما أشق الإصلاح على من يعمل فيها؛ فأنفاسه معدودة عليه، وحركاته وسكناته تسجلها الجواسيس. وهم لا يكتفون بما يعمل، بل يزيدون عليه ما لم يعمل. ويؤولون ما يصدر عنه تأويلاً يزيد في ربحهم وقربهم. يخلص في عمله فيقال إنه يرمي إلى أخطر غاية،

---

[1] الطغام: ضعاف العقول.

ويُعزل من عمله فيقال إنه يدبر المكايد، ويبعد لعمل خارج العاصمه فيقال إنه يسعى للاستقلال بولايته، ويعمل للدستور فيقال إنه يريدها جمهورية، وهكذا وهكذا. في كل خطوة عقبة، وفي كل فكرة وساوس، وفي كل حركة دسائس، وليس يحتمل مثل هذا إلا أولو العزم الذين يدأبون مهما عُذبوا، ويعملون مهما اضُطهدوا، عقيدة تتملكهم أنهم ليسوا ملكاً لأنفسهم ولا لأسرتهم، وإنما هم ملك لفكرة استحوذت عليهم.

ومبدأ غمر مشاعرهم، أما غيرهم فسرعان ما يعودون من منتصف الطريق، سائلين الله السلامة، مكتفين بأول عذاب نالهم ليستريح ضميرهم، ويلقوا التّبعة على سواهم. وكان مدحت من هؤلاء الذين في خلُقهم حمية، وفي طبعهم تحدٍ للشر، وثبات على الجهاد. وجلد على تحمل الألم، حتى يلفظ آخر أنفاسه وعار عليه أن يتأوه.

***

ولد مدحت في استنابول، وكان أبوه "الحاج حافظ محمد أشرف" عالماً دينياً تولى بعض أيامه القضاء الشرعي في بعض الولايات. فأنشأه أبوه تنشئة دينية، فحفَّظه القرآن وهو في العاشرة، ولقب بالحافظ، وهو لقب لكل من يحفظ القرآن من الأتراك. فكان اسمه الحافظ أحمد شفيق؛ أما مدحت الذي غلب عليه فهو اسم ديواني. والتحق بالديوان الهمايوني يتعلم الخط الديواني، وتنقل مع والده في الولايات التي تولى فيها القضاء يتعلم في مكاتبها؛ حتى إذا عاد والده إلى الآستانة ألحقه بأحد أقلام الحكومة يساعد الكتبة ويتعلم منهم بعض الوقت، والبعض الآخر يقضيه في جامع الفاتح. وكانت فيه حلقات الدروس تشبه حلقات الأزهر، لكل شيخ حلقته وتلاميذه. فكان يتعلم هناك اللغة العربية والفارسية والدروس الدينية والنحو والمنطق والفقه والبلاغة والفلسفة التي كانت تسمى الحكمة، وظل على هذه الحال إلى أن ناهز العشرين، تلميذاً في دواوين الحكومة تلميذاً في جامع الفاتح.

وهي ثقافة ـ كما ترى ـ ضعيفة، فلا تاريخ ولا جغرافيا ولا رياضة ولا لغة أجنبية، ولكن قد يعلّم الزمن العقل المستعد أكثر مما تعلمه المدارس النظامية والبرامج الثقافية، ولذلك نراه يشعر بنقصه الثقافي إذا كبر، فيطالع بنفسه الكتب. ولما جاوز الخامسة والثلاثين رأى الحاجة الثقافية والسياسية ماسة إلى تعلم لغة أجنبية، فتعلم اللغة الفرنسية، فكان يدرسها وهو يشتغل في (وظيفته).

وشيء آخر أفاده فائدة كبرى في ثقافته العلمية، وهو سياحته في أوروبا لدرس النظم السياسية والاجتماعية التي أصلحت من شأنها، وعالجت بها أمثال المفاسد التي تعانيها تركيا؛ فحصل على رخصة للسفر سنة 1274 وسنه إذ ذاك نحو ست وثلاثين، فأنفق في سياحته هذه نحو ستة أشهر، زار فيها باريس، ولندن، وفيينا، وبلجيكا، وكانت زيارته زيارة درس واستطلاع، كيف تنظم الدول ماليتها، وكيف تسوس أمورها، وما نظام الحكم فيها، وما علاقة شعوبها بملوكها، وما أهمّ وسائل العمران عندهم؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي ملأت ذهنه، وأراد أن يتطلب الإجابة عنها من كل مملكة زارها ـ وفي الوقت عينه أراد من سياحته أن يتقن اللغة الفرنسية التي تعلمها على كِبَر، فتمّ له ما أراد بعقله المتفتح، وهمته العالية، واستقامته التي أخذها عن دينه.

ولذلك كان مزيجاً غريباً: محافظة على الصلاة وسُنْحة، ومعرفة بشؤون الدنيا، واطلاع واسع على تيارات العالم وأسس المدنية الحديثة، ودَرْوَشة ويقظة.

أول ما لفت الأنظار إليه في تركيا أن شبّ صريحاً لا يتقن فن المجاملة، حاداً لا يكظِم، حارّاً في تنفيذ ما رأى في وسط بارد بطيء، مخلصاً لفكرته، على حين أن كثيراً ممن حوله إنما يخلص لشخصه، تربى في مدرسة كيرلي باشا ورشيد باشا وعالي باشا، وتعلّم منهم القوة والتصميم، والقدرة على التنفيذ، فلما خلفهم من لا يملأ كراسيهم اصطدم بهم. تولى محمد باشا القبرصلي "صدراً أعظم" وكان بينه وبين مدحت إحن وأحقاد، واندلع لهيب الثورة إذ ذاك في البلقان، واحتاجت إلى رجل شديد، فرماها القبرصلي باشا بمدحت. لعله يخفق

أو يُقتل فيستريح منه، وإن نجح فلا بأس، فأقل ما في الأمر أنه أبعده عن وجهه. فسافر مدحت ومعه قوة عسكرية، وقضى ستة أشهر في قمم الجبال ومغاورها يقبض على أشقيائها، وأثبت إدانة أربعة منهم وأعدمهم، وحبس ثمانين أرسلهم إلى الآستانة، وهدأت الفتنة ووضع مشروع الإصلاح، فكان ذلك مما لفت الأنظار إلى قوته وحزمه.

كما لفت الأنظار إلى حسن إرادته عندما عيّن، والياً في الصّرب وبلغاريا، وقضى فيها أربع سنوات كان فيها مجدداً حقاً، يختلف عن سائر الولاة العثمانيين: بث المدارس في أنحاء الولاية، وأنشأ المستشفيات، وأصلح من الطرف نحو ألفي ميل، وبنى نحو 1400 جسر، فإذا أعوزه المال الرسمي حض الأهالي على التبرع فأجابوه، بعد ما لمسوا قيمة الإصلاح في تحسين حالهم، وأهم ما تمتاز به إدارته ـ مما كان جديداً في نظر العثمانيين ـ عدم تفرقته في سياسته وإدارته وعدله بين مسلم ومسيحي، ثم شدته المتناهية على العصاة ومثيري الدسائس، ومعاقبته لهم بما يؤمّن البريء، ويردَع المسيء؛ فأصبحت بفضله هذه المقاطعة على فقرها وكثرة فتنها مضربَ المثل في الغنى والأمن أيام حكمه من غير أن يكلف الدولة مالاً.

كل هذا كان إرهاصاً[1] بما سيكون، إذا أسندت إليه شؤون الدولة.

ـ 2 ـ

إن ضعف الدولة العثمانية الذي ذكرنا، وعدم كفاية السلاطين المتأخرين، صحبهما مشاكل في منتهى التعقيد، فعناصر الدولة متعددة. ويكفي البلقان وحده ـ بما يشمل من البوسنة والهرسك وصربيا وألبانيا واليونان وبلغاريا ورومانيا ـ وما يقطن فيه من أممٍ كثيرة متناقضة المطالب أن يُقضّ مضجع أية دولة مهما بلغت من القوة، وخاصة بعد ما جاءت عدوى القومية فأثارت نوازع كل عنصر

---

[1] إرهاص: علامة ودلالة.

من هذه العناصر نحو الاستقلال، فكيف بالدولة العثمانية، وكيف ذلك مع ألاعيب الدول المختلفة وإثارتها لهذه العناصر؟ هذا إلى تعدد المذاهب الدينية النصرانية وما بين كنائسها من خلافات لا تنتهي. فنشأ عن هذا كله ما سمي "المسألة الشرقية" ويعنون بها "النزاع بين عناصر الأمم التركية من جهة، ودخول الدول العظمى في هذا النزاع لتحقيق آمالها المتناقضة من جهة أخرى".

وسوء الحالة الداخلية والحالة الخارجية يتمخض ـ عادة ـ عن عدد من المفكرين في هذه المشاكل، يقترحون فيها ما يرون من ضروب الإصلاح، ومن هذا نشأت أنواع من الإصلاح متسلسلة تسمى في عرف الأتراك "التنظيمات الخيرية" ويريدون بها الإصلاحات التي يراد بها إنقاذ الدولة العثمانية من ضعفها. وعلاج مشاكلها في الداخل والخارج، من عهد السلطان محمود. وكان من أشهر هذه الإصلاحات أو التنظيمات، القانون المعروف بخط "كُلْخَانه" الذي صدر سنة 1839 في عهد السلطان عبد المجيد، والذي سعى إليه محمد أمين عالي باشا، وكان أهمّ ما يتضمن هذا "الخط" حماية النفس والملكية من غير تفرقة بين جنس أو دين، وإلغاء نظام الالتزام، ومساواة الرعايا مهما اختلف دينهم أمام القانون، وأن جميع المجرمين يجب أن يحاكموا محاكمة علنية، والمساواة في الفرص أمام الجميع لتولي الأعمال الحكومية، وتجنيد غير المسلمين مع المسلمين، وإصلاح الإدارة والشرطة والضرائب والطرق، وإنشاء المصارف إلخ.

ولكن هذه الإصلاحات كان يعترض تنفيذها صعوبات جمّة: أهمها السلطان ـ وأكثر السلاطين كان يرى أن هذه الإصلاحات تحد من إرادته ـ ورجال الدين لغضبهم على التشريع المدني، وبعض الرعايا الأجانب لأن هذه المساواة تحرمهم امتيازاتهم القديمة، وبعض الدول الأجنبية لأنها لا يسرها أن تصلح الدولة. فكانت كل "التنظيمات" التي توضع لا تلبث أن تصبح حبراً على ورق.

وفي هذا الوسط الشائك جداً حاول مدحت باشا أن يضع إصلاحه، فرأى أن الإصلاح الذي يجب أن يسود المملكة العثمانية هو

الحكم الديمقراطي على نمط ما رأى في إنجلترا وفرنسا، ومظهر هذا الحكم هو الدستور، وإنشاء المجالس النيابية، وتمثيل كل عنصر من عناصر الدولة وكل قطر من أقطارها في هذه المجالس، وبعبارة أخرى أن تحكم الأمة نفسها بنفسها، لا أن يحكمها السلطان بإرادته ونوازعه والمقربين إليه الذين يخدمون أغراضهم ومصالحهم.

كان يرى أن كل الأمم الأوروبية مرّت بهذا الدور الذي تمرّ به الدولة العثمانية، ولم ينقذها إلا الحرية، فهي التي تربي الأمم، وتحيي النفوس، وترد للمرء حقوقه، وتشعره بشخصيته، وتضمن له العدل، والحرية هي التي تُوَلّد الدستور الذي يبث الطمأنينة بين أفراد الأمة، ويسوي بين الأفراد على اختلاف دينها وعناصرها، فيؤلف بين قلوبها، وهو الذي يتيح الفرص لكل كفء قادر، ويسد الطريق أمام كل دساس ماكر.

لقد عانت إنجلترا وفرنسا ما نعاني، ووقع على الأفراد هناك الظلم كما يقع علينا، ولكن كلاً منهما نجت من ذلك كلّه بتحرير شعبها، ووضع دستورها، والحزم في السير عليه؛ ذلك حال إنجلترا قبل دستورها وبعده، وحال فرنسا قبل ثورتها وبعدها، هدموا الاستبداد، وأحلّوا محلّه حياة الحرية الصحيحة، فلو فعلنا ذلك وأعلن السلطان الدستور، وسرنا عليه في حزم لانتظمت إدارتنا وماليتنا. وشعرت عناصر الدولة المختلفة بالتساوي بينها ومشاركتها في الحكم وتحقيق العدل فاطمأنّت، ولو فعلنا ذلك لم تجد الدول المختلفة وسيلة التدخل في شؤوننا فكفّت يدها، وإذا تدخلت ظهرَ تعنتها فلم تجد رأياً عاماً يساندها ـ بهذا الدستور يصبح الحكام في كل ولاية مسؤولين أمام البرلمان، وبعبارة أخرى أمام الأمة، فيفتح الحاكم عينه، ويُحدّ من شهوته، ويتحرى العدل، وإلا طار من منصبه.

الدستور عِلمٌ ينشر بين الشعب، وغنى يسبب طمأنينة الشعب، وعدل بين أفراد الشعب، ويقظة للرأي العام، وتفتح للملكات، ونشاط للقُدَر التي كبتَها الاستبداد.

فلا حياة للدولة العثمانية إلا بدراسة النظم الديمقراطية في الأمم الأوربية، واختيار أنسبها مما يتفق وحالة الدولة وظروفها ومركزها، ثم سن تشريع لها، ثم إحاطته بسياج من القوة حتى لا تتلاعب به أيدي العابثين المفسدين.

إلى هذا انتهى مدحت بعد طول درسه وتفكيره وتقليبه وجوه الإصلاح المختلفة.

لم يكن مدحت باشا وحده هو الذي يفكر هذا التفكير، بل كان حوله شباب أحسّ إحساسه وشعر شعوره، وأنكر الاستبداد، وحاول الخلاص منه، وعكف على قراءة التاريخ والسياسة، والنظم الأوروبية، ووجدت جمعية في باريس على رأسها مصطفى باشا فاضل تنقد الدولة العثمانية، ونظام الحكم فيها، وتجاهد في طلب الإصلاح. ومصطفى فاضل هو صاحب الكتاب المفتوح المشهور الذي ترجمه فتحي زغلول باشا "من أمير إلى سلطان" والأمير هو مصطفى فاضل هذا، والسلطان هو السلطان عبد العزيز، والكتاب هو أول كتاب من نوعه يوجهه أمير عثماني إلى السلطان في مثل هذه الصراحة والقوة.

كان رأس هذه الحركة وعقلها المفكر وحكيمها الرزين هو مدحت باشا، وجاء دور التنفيذ، يريد مدحت باشا ورجاله وشبابه الحكم الديمقراطي والدستور والحرية ويصطدمون بالسلطان عبد العزيز وحاشيته وأعوانه، فهم لا يريدون ذلك ـ يرى مدحت أن لا أمل للحياة إلا بالشورى، ويرى عبد العزيز أن الشورى تسلبه سلطانه، يرى مدحت أن الدستور لابد منه، فهو يعيد إلى الأمة حقها في الإشراف على الحكم. ويضمن العدل والمساواة، ويبعث الإخاء، ويحمي الأمة من شهوات الأمراء والسلاطين، ويوحّد بين عناصر الأمة المختلفة؛ ويرى عبد العزيز وحاشيته وكثير من رجال الدين وبعض رجال السياسة أن الحكم النيابي لا يصلح للدولة العثمانية لاختلاف العناصر فيها وعدم التجانس، وميل كثير من الطوائف المسيحية إلى ترويج مصالح الأمم التي ترتبط بها، وعدم بلوغ الأمة

حداً من العلم يهيئها لهذا الحكم وتفضيل مصلحة الوطن على المصلحة الشخصية إلخ...

إذ ذاك ظهر الصراع بأجلى مظاهره، وانجلى الغبار عن معسكرين متميزين بأعلامهما وجنودهما: هذا معسكر مدحت باشا على رأس حزب كبير من الكبراء والوزراء والأمراء وطائفة كبيرة من الشباب، وهذا معسكر على رأسه السلطان عبد العزيز وحوله الحاشية ومحمود نديم رئيس الوزارة، وهو يُمِدّ السلطان بكل ما يحتاج إليه من أموال الدولة، ينفق منه أقله في المصلحة العامة وأكثره في شهواته، ثم يؤيده كثير من المعمّمين من رجال الدين قد اشتُريت ذممهم بما أغدق عليهم من أموال الأمة، فهم يسمّون كل حركة تدعو إلى الإصلاح فتنة، ويقولون: سلطان غَشوم[1] خير من فتنة تدوم.

وكان لكل معسكر أيضاً أدباؤه وكتّابه وشعراؤه، فمع مدحت باشا كتّاب من الطبقة الأولى يحررون في الصحف الفرنسية والتركية والعربية. وأبدع "نامق كمال" أدباً تركياً يتغنّى بالحرية في أسلوب جديد، جميلٍ في بساطة، واضح في قوة، وأدب آخر رجعي يُشيد بذكر للسلطان ويهجو دعاة الحرية والإصلاح، ومنهم صاحب جريدة "الجوائب" وكتّابها.

والدولة الأوروبية نفسها تدخل في هذا المعترك؛ فإنجلترا تعطف على مدحت، لأنها بحكم نظامها تميل إلى الديمقراطية وإلى الدستور، ولأن في صلاح تركيا وهدوئها ما يعوق مطامع روسيا، وروسيا تؤيد السلطان ومحمود نديم، وسفيرها في تركيا "ايغنانيف" يثير الفتن والثورات حتى يحقق مطامع روسيا إذ ذاك.

ويركز مدحت برنامجه في كلمات فيقول: "إن التبذير في الدولة قد بلغ درجة لا تطاق، فنظارة المالية ترسل الأموال إلى المابين، فيصرفها السلطان في ملذاته، والنظار يبيعون الوظائف بيع السلع؛

---

(1) غشوم: ظالم.

فالوالي يشتري وظيفة من الصدر الأعظم ويذهب إلى الولاية فيستغل أهلها بأنواع الظلم، حتى خرجت الولايات، ووقعت الدولة في أزمة شديدة، ولا سبيل إلى الخلاص منها إلا بتبديل الإدارة الحالية، وتبديلها يكون بإنشاء مجلس نيابي، وجَعْل النظار مسؤولين أمامه، وأن يكون هذا المجلس قومياً فلا يفرق في انتخابه بين المذاهب والعناصر ـ وأن يوضع الوُلاة في الولايات تحت الرقابة الشديدة فلا يعبثوا بمصالح الرعية".

كل هذه المعاني تركزت في كلمة واحدة اسمها "الدستور".

هاهي الدعوة تنتشر، والنفوس تغلي، وأخطاء السلطان عبد العزيز المتتابعة تزيدها غلياناً.

تحت ضغط الحوادث أبعد الصدر الأعظم محمود باشا نديم، حبيب السلطان عبد العزيز لأنه يمده بما شاء من أموال الدولة، وحبيب الحاشية كذلك، وحبيب سفير روسيا في الأستانة، وحبيب ذوي المناصب من رجال الدين؛ وعُيّن مدحت باشا صدراً أعظم، وهو المكروه من كل هؤلاء، والمحبوب من الطائفة التي تغلي لطلب الإصلاح.

فما استقرّ على كرسيه حتى أعاد المنفيين الذين نُفوا لاتهامهم بمشايعة حركة الإصلاح، وأعاد تأسيس ميزانية الدولة على أساس ثابت لا أساس صوري كما فعل محمد نديم، وضيّق على السلطان عبد العزيز وحاشيته، فلم يمدّهم بالمال الذي يشتهون، وبتّ في المشاكل الخارجية بما أصلحها، وتوجّه إلى الإصلاحات الداخلية، فاهتم بربط البلاد البعيدة بالدولة، فوضع مشروع خط حديدي يربط العراق بالدولة فإنشاء خط بين بغداد وطرابلُس الشام. واختار مهندساً فرنسياً لذلك كلّفه وضع المشروع وتخطيطه واكتشاف أقرب طريق إلى ذلك، ورسم الخرائط له في نظير مائتي ألف ليرة، ودبر المال لذلك المشروع بالإتفاق مع إنجلترا على دفع ثلاثة ملايين من الليرات في نظير نقل بريد الهند على هذا الخط، كما وضع مشروع إنشاء الخطوط التلغرافية في بلاد الحجاز، وإنشاء طريق حديدي بين دمشق

وبغداد. ومد الأسلاك التلغرافية بين دمشق والحجاز واليمن، وفعلاً أحضرت الخُشُب والأدوات لإنشاء خط بين القدس وجدّة، ورأى أن ذلك لا يكلف الدولة كثيراً، فتلغرافات الحجاج تعوض النفقات في سنين قلائل.

ووضع المكاييل والموازين على أساس عَشري، ووحَّدها بين أجزاء الدولة، وعارض أشد المعارضة في منح الخديوي إسماعيل باشا فرماناً يبيح له عقد قروض من الدول الأجنبية وقال: إنه إذا أبيح له ذلك تدخل الأجانب في شؤون القطر المصري، وضاع استقلاله الإداري والسياسي معاً، وتدخل الأجانب يوماً في شؤون تلك البلاد بحجة حفظ أموالهم"، فعل هذا مع أن السلطان كان قد وعد إسماعيل باشا بإصدار هذا الفرمان.

نَمَطٌ[1] جديد في الوزراء لم يألفه عبد العزيز، فقد ألف أن طاعته غُنم وإشارته حكم. ولذلك لم يلبث مدحت في الوزارة إلا خمسة وسبعين يوماً اعتزل العمل بعدها وضاعت كل مشروعاته، وخسرت الحكومة مائتي ألف ليرة للمهندس الفرنسي واضع مشروع خط بغداد من غير أن تستفيد شيئاً.

ثم رأيناه وزيراً للعدل في وزارة أسعد باشا، ثم في وزارة شروانى زاده محمد رشدي باشا، فمكنته هذه الوزارة الأخيرة أن يَعكُف على وضع النظم واللوائح لإصلاح الدولة.

وكتب مدحت إلى عبد العزيز كتاباً ليناً في مظهره شديداً في جوهره، قال فيه:

"لقد صرحتم جلالتكم في خطاب العرش بأنكم تلتزمون خطة الإصلاح المنشود، ومع هذا فقد ساء الحال، وأنتجت كثرة تغيير موظفي الدولة القلقلة والاضطراب. وضلّ أكثرهم الطريق، ولم

---

[1] النمط: المذهب والنوع.

يسيروا وفق مقصدكم، بل خرجوا عن جادّة[1] الاستقامة وأفسدوا ما أحدثه الإصلاح، واختلت مالية البلاد، وحدا ذلك بالناس إلى نشر الأراجيف[2] في داخل البلاد وخارجها، وخاف الناس أن ينتج هذا انقراض الدولة.

وقد اضطرتنا وطنيتنا إلى عدم السكوت والوقوع فيما لا تحمد عقباه، فلجأنا إلى أعتابكم الشاهانية... ولا يخفى على حكمة جلالتكم أن الدواء الشافي لهذه العلة هو اجتثاث أسبابها التي نعرفها حق المعرفة، فإذا أزيلت الأسباب زال المرض.. فإذا أصدرتم خطاً همايونياً جديداً حَتَّمتم به اتباع القوانين والنظم والمساواة بين الغني والفقير والكبير والصغير في نظر القانون، وأرجعتم المنشآت الخيرية إلى أصلها (وكان السلطان استولى عليها)، وصرفتم الأموال في سبيل ما خصصها له الواقفون، وأعدتم مرجع أمور الدولة إلى الباب العالي (الوزراء) فيقر قراراته ويعرضها على جلالتكم، ولم تستأثروا جلالتكم بشيء من حقوق الدولة المالية والملكية، ولم تصرف المالية قرشاً واحداً إلا برأي الباب العالي، وحُددت وظائف كبار الموظفين وأصاغرهم، وجُعِل الوزراء مسؤولين عن نتائج أعمالهم، وحتمتم ذلك على خواصكم ورجال حاشيتكم ـ إذا تمّ ذلك كله حصلت النتيجة المطلوبة بعون الله تعالى، ووصلت الدولة إلى الطريق الذي ترجوه جلالتكم.

هذه الأقوال هي نتيجة أفكارنا، وربما أخطأنا... ونحن نطلب من جلالتكم تخليص الأمة ـ التي قد أصبحت مصالحها بين يديكم ـ من أزمتها الحاضرة وعلى كل حال فالرأي لكم".

في هذا الكتاب مجمل أفكار مدحت باشا ونظرته إلى الإصلاح.

---

[1] الجادة: الطريق.

[2] الأراجيف: الأخبار الكاذبة السيئة.

أعد مدحت باشا هذا التقرير وهو وزير العدل، وعرضه على الوزراء فاتفقت كلمتهم عليه واتفقوا على أن يرفعه الرئيس إلى السلطان عبد العزيز، فقابله ولم يستطع أن يفاجئه، فحدّث السلطان أحاديث مختلفة، ثم تدرّج إلى ذكر هذا الكتاب، فلما سمع كلمة الإصلاح والشورى والدستور هاج هائجه، وأصدر أمره في الحال بعزل مدحت باشا من الوزارة، وإبعاده بتعيينه والياً لسلانيك، وبعد أيام عزل شروانى وعينه والياً لحلب، وبذلك أبعد الاثنين اللذين يذكران الإصلاح، ولم يمكث مدحت طويلاً في سلانيك فعزل بعد ثلاثة أشهر، وأخذ يصلح في مزرعته، ويفكر في أمته.

- 3 -

هذا مدحت باشا ـ في مزرعته ـ يفكر، كل محاولته في الإصلاح ضاعت سُدىً، لصلابة السلطان عبد العزيز الذي يأبى أن يسمع كلمات "الشورى، والدستور، والعدل، والحرية والأمة"؛ وكل من نطق بهذه الكلمات كان عرضة للنفي والتشريد والقتل والعزل كما حدث له.

إن السبب الوحيد لتذمر المسيحيين في الدولة هو فقدانهم الحرية، فمتى مُنحوها عَطفوا على الدولة وشعروا أنهم جزء منها.

وسَبَب ضعف المسلمين هو فقدان الحرية؛ فمتى شعروا بحريتهم اقدموا على عملهم ونشطوا، وكسبوا، وتعلموا، واستخدموا ذكاءهم ومواهبهم لإسعاد أنفسهم وأسرتهم وهيئتهم الاجتماعية.

وفقدان الجميع الحرية يملؤهم خوفاً، ويفقدهم رجولتهم ويخلقهم بأخلاق العبيد: من ذلة وَضِعة، وعدم الالتفات إلا إلى المأكل والملبس ينالونه من أخسّ الطرق. وليس الذي وقعنا فيه من طبيعة الإسلام في شيء، فالإسلام يسوي بين الغني والفقير في الحقوق والواجبات، وبين الوزير وراعي الغنم، ويجعل أمرهم بينهم شورى، وهذا السلطان يكره كلمة الشورى كما يكره الموت. والإسلام جعل من أهم قواعده الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا السلطان لا يسمح لأحد أن يأمر بمعروف ولا أن ينهي عن منكر.

إن الشورى الإسلامية نظمت في العصر الحديث بما يسميه الأوروبيون البرلمان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تشكل في المدينة الحديثة بحرية الصحف في النقد، وحرية الأفراد والجماعات في التأليف، وإبداء الآراء في صراحة يستحسنون ما يرون، ويستنكرون ما يرون، ويخطبون كما يشاءون. فلا أحد معصوم، ولا الحكومة معصومة، ولا الوالي معصوم، وإنما الذي يقوّمهم ويخيفهم ويلزمهم الجادة يقظة الرأي العام وحريته في النقد، وهذا هو ما سمي في القرآن: بالتواصي بالحق. كل هذا واضح جلي ولابد منه، ولكن إرادة السلطان عبد العزيز هي الصخرة تتكسر عندها كل هذه الآراء.

أرض الدولة العثمانية أخصب أرض في العالم، وهي مع ذلك أفقر أرض، لهجرة كثير من أهلها بالظلم، وإثقال كاهل من بقي بالضرائب. ولا شركات، ولا مصانع، فالقطن كثير في البلاد، ومع هذا فالمنسوجات القطنية تُجلب من أوروبة، حتى الطرابيش التي نضعها على رؤوسنا، وعلب الكبريت التي نشعل بها نيراننا يجلبها من الخارج، وكل المواد الأساسية متوافرة عندنا، ولكن لا عدل ولا أمن على المال، فلا شركات ولا صناعات، ولا يتأتى العدل إلا بالقوانين العادلة، والمحاكم العادلة، وهذه لا تكون إلا بالحرية، أي الدستور. كل من جاهر بالإصلاح أبعد، ففؤاد باشا مات محتقراً مهيناً؛ وعالي باشا دست له الدسائس حتى عُزل من منصبه، وهُما ما هما في الكفاية والاستقامة، وإنما يقرّب أمثال محمود نديم الشرِه الجاهل الذي يقدم مال الدولة للسلطان، ثم ينتهب لنفسه ما نالته يده.

رحم الله فؤاد باشا وعالي باشا، فقد رأيا أن السلطان لا يسمع لقولهما في الإصلاح، ففكرا في حيلة لطيفة: أن يشوّقا السلطان عبد العزيز لزيارة أوروبة، وينتهزا فرصة زيارته للعواصم الأوروبية فيبيّنا له ما وصلت إله من النظام والتقدم، ويشعراه من طرف خفي بأن سبب هذا كله حسن الإدارة وصلاحية الحكم، لعله إذا عاد تحفزت نفسه لحسن التقليد، فأصغى إلى المصلحين وشجعهم على الإصلاح، وسار في أمور غير سيرته، والتفت إلى رعيته، ولكن خاب فألهما، فقد عاد أشد إسرافاً وأكثر تبذيراً في ملذاته. عاد ووعد ثم أخلف ما

وعد، وكل ما فعل أن حقد عليهما لأنهما أشارا عليه بانتخاب مجلس في كل ولاية يجدد كل سنة لمشاركة الوالي في أعماله وبذل النصح له، فرأى أنها فكرة شيطانية يراد منها التدريج إلى البرلمان أو الدستور، ذلك الشبح المخيف. وكل ما جنته البلاد من هذه الرحلة إنشاؤه مصانع ومتاجر باسم خزانته الخاصة لا باسم الشعب. ثم هذا السلطان يستدين ويستدين، فقد كانت ديون الدولة في آخر أيام السلطان عبد المجيد 25 مليون ليرة فبلغت بعد 12 سنة ـ بفضل عبد العزيز ـ 250 مليون ليرة، فما مصير الدولة إذا استمر الحال على هذا المنوال؟ يظهر أن لا أمل في الإصلاح مع وجود "عبد العزيز"، بل لا أمل حتى لو أصدر لوائح الإصلاح، وأوامر إنشاء القوانين للمحاكم والنظم للمدارس، فقد جربناه فرأيناه يطأطئ للعاصفة حتى تمر، فإذا مرّت عاد سيرته الأولى، وحل ما عقد، ونقض ما أبرم.

لم يبق إلا أمر واحد، وهو تهيئة النفوس لعزله، ووضع الخطط المحكمة لإنزاله عن عرشه، ومع الأسف لا يمكن أن يتم ذلك إلا بالجيش، وفي هذا خطره، ولكن قد تعلّمت في جامع الفاتح أن الضرورات تبيح المحظورات، فإذا تمّت الأمور وعزل عبد العزيز، وأقيم مكانه سلطان جديد أقامته الأمة بقوتها، وأعلن ـ يوم توليته ـ الدستور، شعر بأن الأمر بيد الأمة فأطاعها، وأنه مَدين لعرشه بالدستور فاحترمه، وسارت الأمور سيراً حسناً. دستور نافذ، وسلطان مطيع، وبدأنا حياة جديدة كلها خير الأمة، وسرنا في الطريق الذي سارت فيه الأمم الحية، نأخذ محاسنهم، ونتجنب أخطاءهم، فإذا الحياة سعيدة، والعدل شامل، والدستور مكفول، فلنسر على بركة الله.

هكذا فكر مدحت، ويشرف على الإصلاح في مزرعته، والفؤوس تضرب في الأرض، والنواعير تبكي بدموع غزار.

سارت الأمور أول الأمر كما فكر تماماً، فها هو يدبر الحركة ويتصل بالشبان والشيوخ الذين سئموا هذه الحال، ويتفق معه في الرأي حسين عوني باشا (سر عسكر الدولة). وهما يتصلان بناظر البحرية وشيخ الإسلام، ويتفق الجميع على خلع عبد العزيز في يوم معين. حتى إذا جاء اليوم أتى الأسطول فرسا أمام سراي طولمه

بغجة، واجتمعت العساكر فأحاطت بالقصر، ودخل على السلطان من أبلغه خبر العزل، فاستخف بهذا الخبر، فأشهدوه العساكر والأساطيل والجموع المحتشد فاستسلم، وأنزلوه من السراي، ووضعوه في قصر فخم ومعه والدته وثلثمائة أنثى بين زوجات وجوار مملوكات ووصيفات وخادمات، واختصروا حاشيته فاستغنوا عن 1200 سائس و1000 طبلكار (حامل طبليات الطعام) و600 "قواربي" وأمثالهم من الخدم. وقد قطعت مرتباتهم للضائقة المالية التي حلت بالدولة. وبعد بضعة أيام وجد السلطان مقتولاً، فقيل إنه اعتُدي عليه بالقتل، ويرى الأكثرون ويقرر جمع من الأطباء، ويؤكد ذلك مدحت، أن السلطان أخذته العزة فقطع شرياناً من ذراعه بمقراض[1] فمات.

مهما كان فقد بويع السلطان مراد فلم تمض عليه أيام حتى ظهر جنونه واختلط عقله، فوُلي السلطان عبد الحميد بعد ثلاثة اشهر، وحمل "مدحت" عبءَ هذه الأحداث الفظيعة والربكة الشنيعة، وهو في أثناء مرض السلطان مراد يجتمع بأعوانه ويدرس قوانين أوروبة ونظمها ويختار أنسبها.

وكان في ذلك يضع إحدى عينيه على النظم الأوروبية والأخرى على حالة الدولة، فما كل ما يصلح لأوروبة يصلح لها؛ وفي ذلك يقول: "إن أخذ القانون من أوروبة ووضعه لنا لأنه أفادهم يشبه آخذ آلة من الآلات عندهم للنّسج وجلبها إلى بلادنا وليس عندنا فرد يقدر على إدارتها والاستفادة من سرعتها.

"وفضلاً عن ذلك فكثير من القوانين لا يوافق كل الولايات في دولتنا، فالقانون الذي يوافق ولايات حلب وسورية وبغداد لا يوافق ولايات بروسة وأزمير وأدرنة، وقد يكون القانون في بعض الولايات عدلاً، وفي بعضها ظلماً، فيجب النظر إلى هذه المسألة عند تغيير القوانين.

---

[1] مقراض: مقص.

"إن مسألة استقلال المحاكم، وأصول جباية الأموال، وقوانين الإدارة وغيرها من القوانين والنظامات قد استعملها الإفرنج فأفادتهم بسبب رقي الأهالي ومدينتهم، فقانون الأراضي مثلاً يقضي عليها بتعيين المهندسين، ومعرفة مقادير أراضي بلادنا وأصحابها ووضع الضرائب اللازمة، وهذا لا يتم بواسطة كاتب واحد يتقاضى 150 قرشاً في الشهر، فالإفرنج يعينون لكل قرية لجاناً ومهندسين يمسحون الأراضي ويقدرون الضرائب، ونحن لا نعرف لليوم عدد سكان بلادنا ولا مقدار أراضينا.

"فيجب تدريب الرجال وإلقاء أزمة الأمور إليهم بالتدريج... كما يجب تخصيص الأعمال لكل طائفة، ففي أوروبة للمالية اختصاصها، وللحربية اختصاصها، وكذلك للداخلية والعدل، أما عندنا فالأمور كلها منُوطة[1] بالوالي".

وهكذا عكف هو وأعوانه على هذا الإصلاح الذي يتخلص في اختيار خير النظم الأوروبية وأوفقها لحالة الدولة الاجتماعية، والأخذ بيدها تدريجاً، كلما أَلِفَت خطوة انتُقِل بها إلى ما بعدها.

ويُعِد القانون الأساسي للدولة ويرتب نظام مجلس المبعوثان، فما وُلّى السلطان عبد الحميد حتى كان ذلك كله مُعَداً، وتولى مدحت باشا الصدارة. وبعد أربعة أيام من صدارته بادر السلطان إلى إقرار القوانين، وأعلن الدستور المؤسس على الشورى، والمؤسس على اشتراك جميع الرعايا في شؤون تحسين الدولة من غير تفرقة بين عنصر ودين، ونُظّم للدولة مجلسان: مجلس يُنتخب من الأهالي ويسمى بمجلس المبعوثان، ومجلس تُعيّن الدولة أعضاءه ويسمى مجلس الأعيان. وتُلى هذا الدستور المشتمل على 119 مادة بالأستانة في محفل عام (14 من ذي الحجة سنة 1293هـ) وأمر بأن يكون العمل بمقتضاه في جميع أنحاء المملكة العثمانية، وأطلقت المدافع من القلاع البرية والبحرية، واستبشر الناس خيراً، وأقيمت الأفراح

---

[1] منوطة: متعلقة.

والليالي الملاح. وكان يتضمن هذا الدستور حقوق الدولة وواجبات الوزراء ورجال الإدارة، واختصاص كل مجلس من المجلسين، وتنظيم المحاكم والديوان العالي والمالية الخ، وكل الدلائل تبشر بالخير. هذا مدحت أبو الدستور رئيس الوزراء، وهذا السلطان عبد الحميد أتى بإرادة الأمة وهو مَدين لها بجلوسه على العرش، مدحت يؤيده وهو يؤيد مدحت، والكل يخضع للنظام والحكم الديمقراطي، فماذا ينتظر بعد ذلك إلا الخير!!

هكذا قال الناس، وهكذا قال مدحت.

لعله أخطأ إذا بالغ في التفاؤل أكثر مما يلزم، وكذلك أكثر عظماء الرجال تسحرهم الفكرة، ويلعب بُلبِهم المبدأ فلا يرون منه إلا النواحي البراقة، كالفنان يرى في شجرة الورد أزهارها ولا يرى أشواكها. استخفّ بقوة الرجعيين. ولم يعرف لطهارته أساليب دسائسهم، واقتنع بالبسمة على وجوههم، ولم ينفُذْ منها إلى الغِلّ في أعماق صدورهم، ولم يقدِّر قوة العدد الجمّ الذي كان يغتني من الظلم وسيفتقر بالعدل، والذي كان يُثري من كلمة مَلَق أو تسويد سطر بوشاية، فأصبح خائفاً من العدل أن يجرده من ثرائه وينزله عن جاهه، والذين كانوا يبشرون أنفسهم بمواتاة الحظ، لأنهم فقدوا أن ينالوا شيئاً إلا ببذل الجهد.

وشيء آخر مهم فاته، وهو أن من عاش طويلاً في ظل العبودية لا يتعلم سريعاً مزايا الحرية، وأن الأمم السابقة إلى النظم الديمقراطية لاقت الأهوال قبل أن تعتدل، وتأرجحت كثيراً قبل أن تتوسّط، والذي نفعها أنها لم يكن يطمع فيها طامع، فقضت مدة التجربة وهي آمنة مطمئنة؛ إما هذه الدولة فلا ينتظر مدّة تجربتها أحد، فإذا بدأت تجرب قالوا لا تصلح، وإذا أخطأت لم يقولون إنه عَرَض مفارق، بل قالوا طبع ملازم.

فهذا مجلس المبعوثان يجتمع فيشتط بعض أعضائه في القول من غير حساب حتى يثير بأقواله مشاكل ومخاوف ما كان أغناه عنها، وكل ولاية تظن أن مبعوثيها نائبون عنها لا غير، وليسوا

نائبين عن الأمة، وأن عليهم أن ينفذوا جميع رغائبها ولو كانت غير عادلة، ولو كانت لا تتفق ومصلحة الدولة من حيث هي كل؛ ويحمل البريد إلى كل مبعوث ما ينوء بفتحه بَلْهَ[1] قراءته: هذا يطلب عزل خصمه وتوليته بدله، وهذا يلتمس رتبة ونيشاناً وهذا راغب في وظيفة، وهذا راغب في ترقية، حتى بلغ الحال أن مُكارِياً[2] سُرقت دابته فبعث إلى مبعوث ولايته أن يأمر بإعادتها إليه.

وربما كان هذا طبيعياً والنظام جديد، والجهل عريق، ولابدّ من فترة تمر حتى يفهم الناس أن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة، وأن مبعوث الولاية نائب الأمة أولاً وولايته ثانياً، وأنه كلما خفف ناخبوه مطالبهم زادوه مقدرة على نفع أمتهم؛ ولكن أنَّى لهم بمن يصبر على سخافتهم، ويفسَحَ الصدر لمرانتهم، والأعداء كثيرون في الداخل والخارج وهم لهم بالمرصاد؟!

وزاد الأمر سوءاً أن روسيا إذ ذاك لم يرضها هذا الحال، فاحتجت على ذلك وتأخرت في الاعتراف بالنظام الجديد، ولعبت بالبلقان فحركته، وثارت الثورات في أنحائه؛ فثورة في الصرب، وثورة في الجبل الأسود والبوسنة والهرسك، والحروب قائمة، وانتصارات الدولة لا تفيدها عند الدول، وانتصارات عدوها تفيده؛ والدولة فقيرة في المال بما أسرف عبد العزيز، وفقيرة في رؤساء القواد، فقد قتل حسين عوني باشا وغيره معه بيد أثيمة، وروسيا تريد فصل البلغار عن الدولة، ولكل دولة مطامع. ومدحت يتحمل كل هذه الأعباء الداخلية والخارجية في صبر عجيب، فنهاره في تنظيم الشؤون الداخلية، وليله في المشاكل الخارجية، وفي ذلك يقول: "تحملت من المتاعب من يوم جلوس السلطان مراد ما يفوق القدرة البشرية، وكنت أقول ليست هذه الحياة لي بل للأمة، وقد وقع الوطن

---

[1] بله: بمعنى دع، أي فضلاً عن قراءته.

[2] المكارى: مؤجر الدواب.

في مصائب داخلية وخارجية، فواجب أن أسعى في تخليصه من مخالبها".

وفيما هو كذلك سلم إليه أحد رجال المابين كتاباً فتحه وقرأه، فإذا فيه عزله وإبعاده إلى خارج الدولة فوراً من غير أن يعرّج على أهله. وذلك بعد شهرين من صدارته. فألح مدحت على رجال المابين أن يراجع السلطان في بيان السبب؛ فعاد وقال: إن السلطان يقول إن المادة 113 الدستور تخوّل السلطان حق إبعاد الذين ترى نظارة الضابطة سوء حالهم، وقد قدم ناظر الضابطة إلى جلالة السلطان تقريرين وقّع عليهما وهذان. ففتح مدحت أحدهما فإذا فيه: "إن جاسوساً سمع ضابطاً يقول لصاحبه في أحد المقاهي إن مدحت سيكون رئيس جمهورية" فاكتفى مدحت بهذا ولم يفتح الثاني، وقال: "إن بلادي التعيسة كمريض حضره نُطُس[1] الأطباء، وعالجوه حتى كاد يُبِلُّ من مرضه، فاندس عدوّ له فسقاه سماً قضى على حياته". وأذعن للأمر وركب الباخرة "عز الدين" لساعته من غير أن يرى أهله.

وخاف السلطان من الرأي العام، فطلعت الجرائد ومن ضمنها "الجوائب" ترمي مدحت بأفظع التهم، هذه تقول إنه ضبطت أوراق تدل على خيانته، وهذه تقول إنه أراد أن يجعلها جمهورية، وهذه تقول إنه قد أوقع الدولة في مشاكل خطيرة. وأدى الشعر رسالته، وأنشئت فيه قصائد هجاء بليغة. وأظهر كثير من المعممين ابتهاجهم، وقالوا إنه يريد فصل السلطة الدنيوية عن السلطة الدينية.

والذي يقارن بين الجرائد منذ أربعة أيام وبينها اليوم يعجب لهذا الانقلاب الغريب من مديح رنان إلى هجاء رنان. وسكت الناس بين الدهشة والعجب، والشك واليقين، وشرد رجال مدحت ممن أخلصوا له ولمبادئه. ووسط هذه البلبلة الفكرية صدر الأمر الشاهاني بتعطيل

---

[1] نطس: ماهرون.

الدستور تعطيلاً مؤقتاً. ولكن ألا تعرف ـ أيها القارئ الكريم ـ مدة هذا التعطيل المؤقت؟ ثلاثون سنة!!

لم يكن الرأي العام حذراً فخُدِّر، ولا عاقلاً فخدع، ولا قوياً فامتهن.

- 4 -

هذه الباخرة "عز الدين" تمخر البحر لتقذف به في ثغر من ثغر أوروبة، وقد ضاعت كل آماله، فكل ما حزر[1] من تقدير الثورة ونتائجها، والدستور وثباته، والسلطان عبد الحميد وخضوعه لإرادة الأمة، قضَى عليه في لحظة. وزال من الوجود في لمحة، وعادت الدولة إلى ما كانت عليه قبل جهاده المتواصل، وكدحه المتتابع، وكل ما في يده الآن غضبُ السلطان عليه وعلى أتباعه، وبعده عن أهله، وتجرده من ماله.

لو أن أيّ إنسان عادي آخر مكانه للعن الإصلاح والمصلحين، وترك الدولة تجني جزاء ظلم سلاطينها، وانتظر حتى يتشفى بمنظر الفساد يهد أركانها، ويفتخر بأنه نصح فلم ينتصحوا، وأنذر فلم يصغوا، فارتاحت نفسه بصدق ما تنبأ، وحدوث ما أنذر.

ولكن لم يكن مدحت في شيء من هذا، فما مرت هذه الخواطر بنفسه حتى طاردها، وأخذ يفكر من جديد في وسائل إصلاح ما كان، وعجب من نفسه فوصفها بقوله: "إن حب الإصلاح قد اختلط بدمي فكان كالمرض المزمن لا يبرأ منه".

فكر سريعاً، ووصل إلى النتيجة سريعاً، فرأى أن روسيا تحارب بلاده وتجمع لها جيوشها الجرّارة، ويذهب القيصر بنفسه إلى ميدان القتال لتحميس الجند، والدول كلها تتنبأ بنصرتها، فواجبه ـ إذاً ـ أن يؤلّب الدول على روسيا ما استطاع، ويبين لكل منها الأضرار التي تنالها من هزيمة الدولة العثمانية، وتعديل خريطتها. فهو في

---

[1] حزر: خمن وقدر.

أسبانيا يتصل بساسة إنجلترا وفرنسا، ويحاول إقناعهم بآرائه، ثم يذهب إلى إنجلترا لهذا الغرض. ويبرق إلى المابين يقول: "قد سعيت مدة إقامتي في عاصمة بلاد الإنجليز بما يعود على دولتنا بالنفع ويرفع شأن حكومتنا، وحاولت إقناعهم بعقد صلح يحفظ الدولة وعظمتها، وأفتخر أني وفقت إلى ذلك بعض التوفيق"، ثم يذهب إلى فيينا لهذا الغرض ويبرق فيقول: "أنا اليوم في (فيينا) أبذل الجهد لترويج نفس المساعي... وآمل إخباري بما يوافق مصلحة الأمة لأستعين به على أمنيتي الوحيدة وقد وقفت حياتي لتخليص الدولة من ورطتها، وأنا قادر على القيام بأعباء ما يُطلب مني، ومصلحة الوطن تضطرني إلى ذلك".

وكانت تعترضه صعوبة أن بعض الدولة تردُّ عليه بأنه ليس مفوّضاً، ولا له صفة رسمية يتكلم بها، وأنه ليس إلا رجلاً منفياً، فطلب من الدولة تصحيح موقفه لإتمام مساعيه فلم يجد سميعاً!

وأغرب ما في الأمر بعد ذلك أن زفّ إليه "ناظر التشريفات" بشرى ذِكْرَتِهِ. بمحضر السلطان، فسأل عنه: كيف يعيش؟ فقال "ناظر التشريفات": إنه في حالة بؤس، ينتقل من بلد إلى بلد، ويعيش بالقرض؛ فظهرت رِقّة قلب السلطان وبكى، وقال: أرسلوا له ألف ليرة؛ ثم يختم الكتاب بأنه يطلب منه شكر السلطان، وتضرعه إليه بالعفو عنه.

ظن المسكين "ناظر التشريفات" أن كل النفوس ذليلة كذلّته، ملقة كملقه، ولكن هذا الكتاب وقع من نفس مدحت الأبيّة موقع السهم المسموم في الفؤاد الجريح، فهاج وثار، وردّ عليه فقال:

لقد عبرتم للسلطان عن حالي بأنها حال بؤس وفقر وارتحال، تستدرّون بذلك شفقته، وهذا وصف لا يوصف به إلا فاقد الشعور أفّاق[1]، لا رجل مثلي عمل ما عمل، وتولى الصدارة بجدارة.

---

[1] أفاق: متنقل في البلاد للتكسب والاغتنام.

"وأنا كما وصفتم من أسباب عيشي وفقري، فقد اقترضت عشرة آلاف فرنك من خرستاكي في نابلي فنفذت، وأنا اليوم أسعى في قرض جديد أسدّ به رَمَقي ورمق أسرتي في الأستانة، ولكني فخور بذلك، فقد ولدت عاري الجسد، وسأموت عاري الجسد، وأنا ابن الحاج أشرف أفندي ونعم النسب، ومع هذا فلا أنتسب إلا إلى الله، وذخيرتي أني عاهدته ألا أقول إلا الحق، ولو أوصلني إلى مثل ما ألاقيه الآن من الشدائد.

وما الذي فعلت من إجرام حتى أطلبَ العفو؟ لقد سعيت في تولية السلطان مراد بعد عبد العزيز، فلما مرض سعيت أن يجلس مكانه السلطان عبد الحميد، وكان جلوسه مقروناً بإعلان الدستور ووضع خُطط الإصلاح.

"ومنذ خروجي من الأستانة وأنا أفكر في الدولة وسبيل إنقاذها من المهالك، ولا أفكر في نفسي، فماذا في هذا مما يُعتذر منه؟

لقد بلغتُ السادسة والخمسين، ولا أمل لي في الحياة، فلم يتجاوز أسلافي الستين فأيامي معدودة، وكل رجائي أن أعيش منفرداً، وأدعو لولي النعم الأعظم".

هذه خلاصة كتاب أقل ما يوصف به أنه يعبر أصدق تعبير عن قوة مدحت وعظمته ورجولته وسمو نفسه.

لقد وصف "ناظر التشريفات" هذا الكتاب لما قرأه بأنه كالعروس عَطِلت من حَلِيها، وعَرِيَت من ثيابها. ولكن أين يكون الجمال إذا لم يكن هذا جميلاً؟ وفي الحق أن هناك عيوناً لا ترى الجمال الحق في الإباء والشّمم، وإنما ترى الجمال المتصنع في النفاق والمَلَقَ.

كان يوماً يصطاف في الريف عند صديق له من دوقات الإنجليز، وإذا بسفير الدولة العثمانية في إنجلترا يقابله ويبلغه أن السلطان سمح له أن يقيم مع أسرته في جزيرة "كريد". فذهب إليها وعاش فيها من أسرته نحو شهرين. ثم عيّن والياً لسورية، ثم لأزمير، ثم كانت مأساته التي ختمت بها حياته كما سنبينه بعد.

***

هذا هو العمود الفقري في حياة مدحت، وله بجانب هذا أعمال فرعية في الولايات التي تولاها، وهي أعمال خالدة لا تزال تُذكر من أهل البلاد التي عَمِل فيها بالحمد والثناء.

لقد وَلي العراق، وولى سلانيك. وولى الشام، وولى أزمير، وكان له في كل أولئك خطة واحدة، يَعمد ـ أولاً ـ إلى الأشقياء الذين يعبثون بالأمن فيضربهم ضربة تنخلع منها قلوبهم وقلوب أمثالهم، فإذا الأمن شامل والهدوء عام. ثم ينشر العدل بين الناس فيطمئنون على أنفسهم وأموالهم، ويعمل بالشورى فيحيط نفسه بمجلس من خيرة الولاية يستشيرهم في أمورها، ويجرّئهم على قول الحق في صراحة؛ ويعلمهم كيف يعالجون المشاكل؛ ثم يصلح الطرق ويربط الولاية بشبكة محكمة، لأن ذلك يعين على الإسراع في ضبط أمورها، ثم يضع الخُطط لاستغلال منابع الثروة في البلاد على خير وجه، كل ولاية بما يناسبها، حتى يزيد نتاجها على نفقاتها، ويأخذ من المال الناتج لإنشاء المدارس ونشر التعليم، وهو بعمله هذا يضع نواة العلم في بلاد فشا فيها الجهل وكادت تعمّ فيها الأمية.

تولى العراق سنة 1275هـ سنة 1870م في عهد السلطان عبد العزيز، فأخضع رؤساء العشائر بعد عنادها، ودوَّخ العصاة وطاردهم في أوكارهم، ثم أصلح أداة الحكومة، فأقبل الزراع على زراعتهم، والعمال والصناع على عملهم وصناعتهم وأنشأ أول مطبعة في بغداد، وشجّع على إنشاء جريدة سمّاها "الزّوراء"، وحثّ الشركات على العمل، فشركة تسيّر البواخر بين بغداد والبصرة، وشركة تسير الترام بين بغداد والكاظمية، وقرّب المسافة بين بغداد والبصرة بتحويل مجرى دجلة، وبثّ المهندسين الزراعيين يدرسون حالة البلاد الزراعية، وأنشأ مُتنزهاً عاماً في بغداد سمّاه "بستان الأمة" (مِلّت باغجه سي).

ومن طريف آرائه أنه عرف أن "بالنجف" كنوزاً مدفونة، فيها كثير من الأحجار الكريمة كانت تزيّن بها الأضرحة والمشاهد، قد أخفيت أيام هجوم الوهابيين وهدمهم للقبور، فأخرجها مدحت، وقوّمها

الخبراء بما يزيد على ثلثمائة ألف ليرة، فاقترح مدحت بيعها وإنشاء خط حديدي بثمنها بين النجف وإيران (إذ كان قد اشترك في التبرع بها كثير من الفُرس)، فلم يوافقه العلماء على ذلك فبطل المشروع. كذلك من طرائفه أنه ألف مجلساً للشورى في بغداد يرجع إليه في أمور الولاية، ولم يكن الناس يألفون الجهر بالرأي والشجاعة في القول، ولا يعد لهم بجانب رأي الوالي رأي، فجمعهم يوماً وقال لهم: إني أرى الحاجة ماسة إلى استئذان الباب العالي في زيادة الضرائب لتنفيذ ما ترى من وجوه الإصلاح فماذا ترون؟ قالوا جميعاً: موافقون، هذا هو الرأي، وهي الحكمة. فكتب لذلك محضراً وختمه جميعهم، ثم جمعهم في اليوم الثاني وقال: لقد فكرت في أمر زيادة الضرائب فتراءى لي أنها ظلم فادح لا يستطيعه الناس، ولكن محضر أمس أرسل، فإذا رأيتم وهذا الرأي صواباً كتبنا آخر ألحقناه به، وبيّنا الأسباب الموجبة لنقضه، فقالوا: نِعمَ الرأي ما رأيت. ووقعوا على الثاني كما وقعوا على الأول. فأمسك بالمحضرين هذا بيد وهذا بيد، وقال: والله ما أرسلته، ولكن أردت أن أختبركم، فما قيمة المجلس إذا رجعتم دائماً إلى رأيي وحده؟! ثم ألقى عليهم درساً قاسياً في الحرية وفوائدها، والشخصية وتكوينها، والاستقلال في الرأي ومزاياه.

وكانت ولايته للشام أصعب، فقد تولاها في العهد الحميدي بعد موقفه من عبد العزيز واتهامه بالجمهورية، وعداء السلطان والمابين والوزراء له. كلهم يتربص به الدوائر. ثم مشاكل الشام أعقد من مشاكل العراق، فهذا مشاكله بدوُهُ وعشائره، وعلاقته بإيران ونحو ذلك. أما مشاكل الشام فأخطر: أمور لبنان تتصل بفرنسا، وأمور الدروز تتصل بإنجلترا، ولكل دولة مصالح ومدارس وكنائس، وغير ذلك. فكان أول ما لفت نظره ما ذكر من "أن مسلميها قد فشا بينهم الجهل... ومدارس الإفرنج تتقدم كل يوم تقدماً ملموساً، وليس للحكومة سوى بعض مدارس ابتدائية يقرأ فيها الأحداث القرآن، فكنت أفكر في أمر تعليم أبناء المسلمين وإصلاح مدارسنا".

فشكّل الجمعيات، وجمع الإعانات، وفتح المدارس، واصلح المساجد وجعلها مدارس، ووضع عقوبة لوليّ أمر الطفل إذا بلغ ابنه

السادسة ولم يرسله إلى المدرسة، واستعان بأموال الأوقاف في أمور التعليم، وتأسست في عهده "جمعية المقاصد الخيرية" وانتشرت شُعَبها في البلاد.

ولما حاول الإصلاح الاقتصادي والإداري اصطدم بالدول؛ فكانت فرنسا صاحبة امتياز لبنان، وكانت الحكومة العثمانية خصصت لها خمسة وعشرين ألف ليرة من إيراد جمارك الشام، فكتب إلى رئيس الوزارة بقطع هذا المبلغ فغضبت فرنسا، وهكذا وهكذا من مشاكل، والدسائس تُحاك حوله، وتشاع الإشاعات بأنه يريد الاستقلال بسورية، ويُستدل على ذلك بأن هاتفاً هتف أمامه "فليحيى مدحت باشا" وأن كاتباً كتب "الخديوي مدحت". فلم يتمكن من الإصلاح في الشام كما تمكن منه في العراق، بسبب ما لاقى من العناء في الداخل والخارج. فيالله للمصلحين!

وأخيراً نقل إلى أزمير، فلم يطل بها مُقامه حتى كانت المأساة.

فبعد خمس سنين من وفاة السلطان عبد العزيز تحركت مسألة وفاته من جديد، وأشيعت الإشاعات أنه لم ينتحر وإنما قتل بإيعاز مدحت وأصحابه. وبلغ مدحت وهو في أزمير أنه يُراد القبض عليه والتحقيق معه، وكتب إليه صديق له: "فأخرج أني لك من الناصحين". وعرض عليه بعض أصدقائه من الأوروبيين ركوب باخرة معدّة وسفرَه إلى الخارج، فرفض وقال: "كيف أرتكب الفرار لجريمة لا نصيب لها من الصحة؟".

وبينما هو نائم في داره إذا بالجنود تحيط به، ويُقبض عليه ويرسل إلى الأستانة لمحاكمته بتهمة الاشتراك في قتل عبد العزيز.

من عهد أن تولى السلطان عبد الحميد، وهو لا يأمن جانب مدحت، ومن لفّ لفة، ويخشي جدّ الخشية أن يعيدوا معه تمثيل دور عبد العزيز، وبلغت به الخشية حد الهوس، فكل قوَى المملكة من مال ورجال وسمع وبصر مسخرة للمحافظة على شخصه، ومراقبة مدحت وأمثاله، لأن من قدر على البدء كان أقدر على الإعادة. وأخيراً اهتدى هو وأعوانه ـ للقضاء على مدحت وأصحابه ـ إلى هذه

التهمة، فدبّرت محاكمتهم، ورتبت شهودهم، ورسمت خطة الإيقاع بهم. وبعد محاكمة صورية حكم عليهم بالإعدام. فتوسط الإنجليز وبعض سفراء الدولة فاستبدل بالإعدام النفي، ووضعوا في باخرة سارت بهم إلى جدّة ومنها إلى الطائف. وأهينوا من يوم خروجهم من الأستانة بالتضييق عليهم في مأكلهم وملبسهم ومنامهم، وسجنوا في قلعة الطائف ثلاث سنين، وأجرى عليهم العذاب ألواناً، وكلما مر عليهم زمن وهم أحياء زادوهم تضييقاً حتى يموتوا، ومن اشتد من الضباط عليهم رُقي، ومن أخذته الشفقة عليهم أبعد. ومدحت يرسل الكتب إلى أهله يطلب منهم مالاً يقتات به، ويبذل كثيراً من الحيل في إيصالها إليهم، فإذا أرسلوا مالا لم يصل إليه. وثمانية من سادة القوم منهم مدحت يعيشون على صحن من الحساء[1] مصنوع من الماء وورق الفجل في الصباح، ومثله في المساء، يريدون بذلك أن يميتوهم جوعاً، ولكنهم لا يموتون. وأخيراً ضاق ولاة الأمور بهم ذرعاً فقرروا أن يسمّوهم ولكن مدحت وصحبه يكتشفون المؤامرة.

فلما أعيتهم الحيل أوعزوا بخنق مدحت فخنق. وكان آخر ما كَتَب كتاب إلى أهله جاء فيه: سيكون هذا المكتوب آخر ما أكتب فيما أظن.

"فقد أخذوا منا الأقلام والمداد والورق، وضيّقوا الخناق، وقصدوا تسميمنا واحداً بعد واحد، ولكن ظهرت نيتهم.

"ولابد أن يصلوا يوماً ما إلى غرضهم. فإذا جاءكم خبر وفاتي قبل كتابي فلا تحزنوا: وأنا أرجو من الله المغفرة، فقد مت فداء الوطن، وأستودعكم الخالق الباقي".

***

قضى مدحت حياته كلها في الإصلاح الاجتماعي، يختار من المدنية الحديثة أحسن ما وصلت إليه في تنظيم الحكم على أساس

---

[1] الحساء: ما يحسى، أي يشرب.

الشورى التي تتفق وتعاليم الإسلام، ويأخذ خير أساليبها في نشر العلم وتنظيم الحياة الاقتصادية للبلاد، ويراعى في ذلك كله مستوى الأمة ومقدرتها على الامتصاص، فيعجل ما أمكن، ويؤجل ما لم يمكن إلى أن يمكن، ويعدل ما يأخذه حتى يتفق وعقلية شعبه، ويلتذ من العذاب يصيبه في هذه السبيل، لأنه ربط الإصلاح بعقيدته الدينية، فالدين في نظره ليس صلاة وصوماً فقط، لكنه مع ذلك عمل الخير لشعبه، ولا خير أرقى من الأخذ بيد الأمة لتفهم حقوقها وواجباتها، وتثور على من يقف عقبة في سبيل تقدمها؛ ومن أجل هذا كان هادئاً مطمئناً مستبشراً وهو في منفاه، يرتقب الموت من ساعة إلى ساعة، ويقول لأهله في بعض كتبه: إني أقرأ القرآن وأستعيد حفظه وأستعذب تكرار آية "ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه" وأعدّها أكبر عزاء لي، وأهزأ بما أسمع من هجاء وافتراء، فقد سلّمت كل أموري لربي. إن الحياة محدودة وهي كألعوبة، ومحنتنا يكافئنا عليها ربنا، ولنا أسوة في الأنبياء والأولياء الذين قتلوا أو سجنوا فصبروا على ما أصابهم.

فإذا فرغ من عباداته،دوّن بعض مذكراته.

***

وقد خدمت أفكاره شناعة وفاته، أكثر مما خدمها جهاده في حياته، فقد ألمت النفوس الخيّرة مما أصابه ألماً ممضاً، وتأججت النار في أفئدتهم وأفئدة من يتصل بهم، وكانت أحداث الظلم المتوالية تغذيها بالوقود، فلما التهبت النيران التهمت عبد الحميد كما التهمت من قبل عبد العزيز. بل لعلها أيضاً هي التي التهمت فكرة الخلافة من أساسها فيما بعد.

***

خير الدين باشا التونسي
(حوالي سنة 1225 - 1307 هـ
= نحو 1810 - 1879)

عَقَل فرأى نفسه في الأستانة في أسرة غير أسرته، في بيت تحسين بك نقيب الأشراف، ليست سيدة البيت له أمّاً، ولا تحسين بك أباً، ولا أبناء البيت أخوة، وإنما يسمع همساً أنه عبد مملوك على معنى غامض لم يفهمه أولاً، أين وُلد؟ وأين أسرته؟ وكيف أتى إلى هذا البيت؟ سؤال محير كسؤال ابن الشبل البغدادي:

فماذا الامتنان على وجود
لغير الموجَدين به الخيار؟
وكانت أنعماً لو أن كوناً
نُخَيَّر قبله أو نستشار

وقول أبي العلاء:

ما باختياري ميلادي ولا هرمي

ولا حياتي، فهل لي بعدُ تخيير؟

ونظر فرأى تحسين بك يوماً يعرضه على رجل يفحصه كما تُفْحَص السلعة، ويصّعد فيه نظره ويصّوب، ويختبره من فرقه إلى قدمه، ثم يدفع مالاً في يد تحسين، وينتقل هو إلى يده، وهذا يُركبه مركباً يبحر به إلى تونس، وإذا به في بيت جديد هو بيت أحمد باشا، باي تونس.

ما هذا الغموض كله؟

تكشف له البحث بعد ذلك عن مأساةً، فهو شركسي الأصل، من أسرة أباظة، خُطف وهو طفل على أثر غارة أو فتنة أو هجرة، وبيع عبداً في سوق الرقيق بالأستانة، فاشتراه تحسين بك، وهذا باعه إلى أحد وكلاء باي تونس الذي أنفذه لشراء السراري[1] والعبيد.

مأساة تبعث الأسى والحزن، قد حرمته أن يتذوق عطف أبيه وأمه، وينعم بحريته، وهي لا يعوضها شيء في الوجود، حتى لو نعم في قصر تحسين بك أو قصر باي تونس، فما هذا النعيم؟.

وبيت تخفُق الأرواح[2] فيه

أحبُّ إلي من قصر مُنِيف

وكل أكل فاخر وملبس باهر ونعيم باذخ لا يساوي شيئاً بجانب نظرة ينظرها تحسين وأهله، وباي تونس وبلاطه، إلى هذا الفتى على أنه رقيق اشتُرى بدنانير معدودة.

---

[1] السراري: الإماء يتخذون في البيوت.

[2] الأرواح: الرياح.

كان هذا كلَّ ما وصل إلى علمه عن طريق اليقين، ورجح عنده فيما بعد أن له أخاً في مصر يشغل منصباً كبيراً في الدولة المصرية، ويمتلك ثروة طائلة، فأبت على خير الدين كرامته وإباؤه وظنونه ـ وما قد يعقب ذلك من تفسيرات تؤلمه ـ أن يكاتبه ويخبره، وفضَّل أن يحتفظ بذلك السر لنفسه وأقرب الناس إليه.

* * *

ومن قديم عرف الشراكسة في العالم الإسلامي، وهم قبائل بدوية تسكن البقعة الشمالية من بحر قزوين وجزءاً من ساحل البحر الأسود، وكان عددهم كبيراً، فلما احتلت روسيا أخيراً بلادهم تفرق كثير منهم في تركيا وآسية الصغرى، وقد انتشر الإسلام بينهم وكاد يعمهم من نحو ثلاثة قرون.

وفي الشراكسة فضائل البداوة من الشجاعة والكرم، ويمتازون بالنظافة والجمال. عرف عنهم ذلك فكان الصغار والفتيان والفتيات يُخْطَفون أو يباعون، ويُصدَّرون إلى المملكة الإسلامية في عهد العصر العباسي الأول.

ولا تنسى مصر أنها حُكمت بدولة المماليك الشراكسة من سنة 724 إلى سنة 923 هـ فاقتنى منهم سلاطين مصر عدداً وافراً، واستخدموهم في أعلى مناصب الدولة وعهدوا إليهم في الشؤون الحربية، فأمسكوا بزمام الحصون والقلاع، وعُرفوا بالإخاء ومعاونة بعضهم بعضاً، فلما أتيحت لهم الفرصة تغلبوا على الدولة، ومُلِّكوا على البلاد؛ أولهم السلطان برقوق، وظل الحكم فيهم إلى أن انهزم طومان باي أمام السلطان سليم، وكان مع طومان باي هذا أربعون ألف شركسي، ذابوا كلهم وذوو قرابتهم ومن أتى بعدهم في الأمة المصرية، فكانوا عنصراً من عناصر دمها. كما لا ننسى أن من أهم أسباب الثورة العرابية أول أمرها اعتقاد الضباط المصريين أنهم مغبونون إذا قيسوا بالضباط الشراكسة لترقيتهم دونهم.

* * *

كانت تونس حين حُمل إليها خير الدين كسائر بلاد الشرق، مقرَّاً لحضارة قد هَرِمَت، ذهبت روحها ولم يبق إلاَّ رسمها.

الحياة العلمية فيها أشبه بما كان في مصر قبيل عهد محمد علي، كتاتيب بُدائية منتشرة في القرى والمدن غايتها تحفيظ القرآن، وقلما يبلغون هذه الغاية، ويستطيع التلميذ بفضل مناهج الدراسة فيها أن يقضي عشرَ سنين وأكثر من غير أن يُحسن القراءة والكتابة، وكل ما يبلغه النجيب منهم أن يحفظ القرآن أو بعضه.

وعلى رأس هذه الكتاتيب جامع الزيتونة، وهو صورة مصغرة من الأزهر في ذلك العهد، تُقرأ فيه علوم الدين من تفسير وحديث وفقه وعقائد، وعلوم اللغة من نحو وصرف ومعان وبيان، في كتب مقررة، لها متون وشروح وحواش، ويُقضى الوقت في تفهم تعبيراتهم وإيراد الاعتراضات عليها والإجابة عنها؛ فالعلم شكل علم لا علم، والنتاج جدل لا حقائق، والناجح في الامتحان الذي يستحق أن يسمَّى "عالماً" أقدرهم على الجدل واحفظ المصطلحات الشكلية. أما الجميع فسواء في عدم التحصيل؛ إذا مسوا الحياة الخارجية، فالمناقشة العنيفة في أن شُرْبَ الدخان حلال أو حرام، والغيبة أشدُّ حرمةً أم سماع الآلات الموسيقية، و"خيال الظل" تجوز رؤيته أو لا تجوز، وجزء كبير من السكان بدوٌ لا يعرفون من الإسلام إلاَّ الشهادتين، ولا يصل إليهم شيء من علم إلا في بعض أماكن أنشأ فيها الصوفية زوايا تعلم الناس شيئاً من الدين، وللجاليات الأجنبية من فرنسية وإيطالية وإنجليزية مدارس تعلم أبناءها وقليلاً من أبناء البلاد اللغات والجغرافيا والتاريخ والحساب والجبر والهندسة، فتخرَّج من هم أقدر على فهم الحياة، فإذا انغمسوا فيها تحولت مالية البلاد إلى أيديهم.

عماد أهلها الفلاحة، وآلاتها وأساليبها هي بعينها ما كانت عليه في القرون الأولى قبل الإسلام وقبل الرومان، وساهم بعض الأوروبيين في الزراعة، فطعموا الأشجار وبخروها ولقحوها، فدرت عليهم الأرباح ما لم ينله سكان البلاد. ثم قبض هؤلاء الأجانب على الأسواق الخارجية، وخاصة في أكبر غَلة البلاد، هي زيت الزيتون، فمن ناحية أنشأوا المعاصر تدار بالبخار، ومن ناحية وضعوا أيديهم

على ما ينتجونه وما ينتجه الأهالي، واحتكروا التجارة إلى الخارج إلا القليل النادر من أهل البلاد. وكان التونسيون يصنعون نوعاً من النسيج اسمه "الشاشية"، وكانت مصانعها كثيرة، وكانت مصدر رزق لكثير منهم، ولكنها كانت تصنع بالآلات القديمة، فلما تقدمت الصناعة في أوربة، وكانت الآلات تدار بالبخار وتنتج نتاجاً كثيراً من الشاش هذا، رَخُصَ سعره، وأصيبت الصناعة في تونس بضربة قاضية، حتى لم يبق من مصانعها التي تبلغ ألفاً غير ثلاثين.

وناهيك بما يجره ذلك من الفقر والخراب، كما زاحمت "الجَزْمَةُ" "البلغَة" وقضت عليها، واختل الميزان التجاري فكثُر الوارد وقلَّ الصادر، وتغلب الفرنسيون والإيطاليون على السوق وأمسكوا بزمامه.

وكان مما أضعف التجارة سوء أدوات النقل وفساد الطرق، فهم ينقلون غلالهم على الإبل والخيل والبغال ونوع من العربات البدائية، وتنقل القبائل البدوية غلاتها في قوافل، فإذا كان الشتاء وأمطرت السماء تشعثت الطرق فتعطلت الحركة.

وأما إدارة البلاد ففوضى أي فوضى، الحاكم حاكم بأمره، وأحبّ الناس إليه من يجمع له المال من حِلِّه وحرامه، ولا ضبط في دَخْل ولا خرج، والعدل والظلم متروكان للمصادفات، فإن تولى بعض الأمور عادل عدل، وكان العدل موقوتاً بحياته ـ وقلما يكون. ونظام القضاء والجيش والإدارة والضرائب وجباية الأموال وإنفاقه على النمط العتيق البالي، وكثير من الأمور تنفذ بالأوامر الشفوية، لا مرجع لها ولا يمكن الحساب عليها.

وكانت تونس إذ ذاك تحت حكم البايات، والباي في تونس لقب كالخديوي في مصر، وكان الباي يتبع الدولة العثمانية تبعية ضعيفة، فيساعدها في حروبها، ويحمل إليها مقداراً من المال وكثيراً من الهدايا، وإذا حدث مُشْكل دوليّ في تونس تدخلت الدولة العثمانية لفض النزاع، وأرسلت مندوباً من قبلها ليشرف على الحل. أما في ما عدا هذا فولاية تونس شِبهُ مستقلة، والباي حرُّ التصرف.

ولكن فرنسا كانت قد استولت على جارتها "الجزائر" ووضعت نُصبَ عينيها إضعاف علاقة تونس بالدولة العثمانية شيئاً فشيئاً، وتوثيق علاقاتها هي بها شيئاً فشيئاً، وانتهاز الفرص للتغلب عليها نهائياً.

وكان باي تونس الذي ملك خير الدين هو الباي أحمد باشا الذي كان والياً من (1253 - 1271 هـ) وقد أنعم عليه السلطان محمود بالخِلعَة السنية ورتبة المُشِيريّة، ونحن نعلم أن السلطان محمود هذا قد ألجأته الظروف القاسية وضغط أوروبا ومطالبها وضعف حال دولته الداخلية، إلى أن يجتهد في تنظيم الدولة على أسس جديدة يقبس فيها من نظم أوربة وقوانينها وإدارتها. وكان مما فعل أن أرسل إلى الباي أحمد هذا يطلب إليه أن يُدخل الأنظمة الحديثة في تُونس وخاصة في الجيش، فطلب الباي الإمهال قليلاً والتدرج في التغيير بسبب عادات البلاد وتقاليدها وعقليتها، ثم أخذ فعلاً في تنظيم الجيش.

* * *

في هذه البيئة كلها التي وصفناها وصفاً موجزاً وضع الشابُّ خير الدين قدمه في تونس.

- 2 -

تربى في قصر الباي أحمد ـ وكان من حسنات الباي أن اهتم بتعليمه ليعده رجلاً من رجاله، والتعليم كله في تونس كان مصبوغاً بالصبغة الدينية، فكان البرنامج الذي أُعدَّ له أن يتعلم القراءة والكتابة ويحفظ ما استطاع من القرآن ويُجوِّدَه[1] وشيئاً من الفقه والتوحيد، فتقدم في كل ما تعلمه، وأخذ هو بعد ذلك يتوسع في العلوم الشرعية بمخالطة العلماء والاستفادة منهم، وفي علوم اللغة والمرانة على الكتابة ومطالعة كتب التاريخ.

---

[1] يجوده: يتلوه على أصول علم التجويد، وبه تعرف مخارج الحروف والمد وما إلى ذلك.

وعُرف في بيئته بالتدُّين ومحافظته على أداء الشعائر وتوقير الشريعة ورجالها، وإلى ذلك نَزَعَ إلى تعلم الفرنسية فأحسن تعلمها، فكان يجيد العربية والفرنسية والتركية.

وحدث أن الدولة العثمانية كانت قد اتجهت إلى تنظيم شؤونها وخاصة جيوشها ـ كما أشرنا قبل ـ وكتبت إلى ولاياتها بذلك، ومنها تونس، فأخذ الباي، أحمد ينظم جيشه، وكتب إلى فرنسا يسألها المعونة في ذلك، فأرسلت إليه بعثةٌ من الضباط الفرنسيين وعلى رأسها القومندان كامبنون الذي صار فيما بعد وزيراً للحربية الفرنسية في حكومة جامبتا.

فالتحق خير الدين بالجيش التونسي يتعلم من هذه البعثة، ومن ذلك الحين. دخل في السلك العسكري، وكان هذا يوافق مزاجه الشركسي، فكان رئيساً لفرقة الفرسان، وما زال يرقى حتى كان أميراً للواء الخيالة سنة 1266.

أفادته التربية الأولى أن يكون متديناً مثقفاً مطلعاً على أحداث الماضي قريباً من نفوس العلماء، وخاصة الشعب، وأفادته التربية الثانية حبَّ النظام وقوة الحزم وسرعة البتِّ[1]. وصلابة الرأي.

ثم اضطرته الظروف بعد إلى مزاولة الأمور السياسية والانغماس فيها.

قد كان في أيامه هذه ثلاثُ شخصيات مشهورة، هي التي تدير دفّة الحكم وتظهر على المسرح: الباي أحمد باشا، مصطفى خزنة دار، ومحمود بن عياد.

فالباي أحمد ـ مولى خير الدين[2] ـ والٍ طموح يحب رقيَّ البلاد، فيأخذ في تنظيم الجيش ويشجع نشر العلم، ويخصِّص المرتبات

---

[1] البت: الفصل في الأمور.

[2] مولاه: سيده.

للعلماء، ويؤسس مكتبة فخمة في جامع الزيتونة، ويعيد تنظيم الإدارة الحكومية على أسس حديثة بتحديد اختصاص، ولكن فيه إسراف وإفراط في الترف وقلة نظر للعواقب وخضوع لبعض الظالمين من رجال دولته الماليين، لحاجته إليهم فيما يُشرف من مال، ونقطة الضعف هذه جعلته يتغاضى عما يأتون من مفاسد خطيرة.

ومصطفى خزنة دار وزير العمالة "المالية والداخلية" رجل مغْربيُّ الأصل، جاء تونس وسنه دون العشر، فرباه أحمد باشا كما ربَّى خير الدين، وارتقى في الوظائف حتى صار وزيراً؛ وهو شخصية غريبة، ليّن بسام، لا يقول "لا" لمن طلب منه شيئاً ولو مستحيلاً، يُرْضِي بالوَعْد ظاهراً ويُضْمِر عدمَ الوفاء باطناً، عفّ اللسان "مُتَدَرْوِش" يحافظ على الصلوات ويقرأ الأوراد ويقوم الثلث الأخير من الليل، وهو مع ذلك شَرِهٌ في جمع المال، لا يتورع عن السرقة والغصب ومشاركة السارقين والغاصبين. تولى الوزارة نحو خمسة وثلاثين عاماً أثقل فيها كاهل[1] الشعب بالضرائب والمظالم، يفعل ذلك كله نهاراً ويتهجَّد ليلاً، يختلس المال ويعمر المساجد؛ بدأ حياته سمحاً كريماً وختمها بخيلاً شحيحاً؛ زوَّج بنته من خير الدين لما تنبأ له بمستقبل باهر، وبسط سلطانه على الباي أحمد بحيله وأساليبه، غشَّى بصَرَه فلم يعد يرى ظلمه وفساده، وحارب بكل قوته من تقرب الباي أو من مال إليه الباي، حتى يضمن دوام نفوذه، يحبّذ للوالي كثرة الإنفاق في الإصلاح وغير الإصلاح، ويشجعه على الإمعان في الترف والإفاضة في البذل، حتى يأسِره بحاجته إليه وحتى يتخذ من كل ذلك وسائل لاستنزاف مال الشعب. بعضه له وبعضه للوالي.

ومحمود بن عياد يد مصطفى خزنة دار التي يقبض بها ويسرق بها ويستغل بها، وشريكه في المغانم والمظالم، وظيفته جمع الضرائب على اختلاف أنواعها، وشراء جميع ما تحتاجه الحكومة وما يحتاجه الوالي؛ وظل على هذا عشرين عاماً؛ ذكيّ خبيث ماهر،

---

[1] الكاهل: أعلى الظهر مما يلي العنق.

يغالي في الضرائب ويتخذ كل الحيل حتى لا تصل مظلمة إلى سمع الوالي، فإذا وصلت احتال حتى تُرْفَضَ. استطاع أن يجمع من الثروة من هذه الأبواب ثمانين مليوناً.

رأى من بعيد أن الشعب بدأ يعلو أنينه، وأنه يوشِك أن يفتَضِحَ هو وشريكه فهربا أموالهما إلى فرنسا، وادعى ابن عياد المرض وزعم أنه مسافر إلى باريس للتداوي، فلما وصل إليها أعلن عدم العودة، وطلب أن يتجنس بالجنسية الفرنسية فأجيب إلى طلبه.

ومع هذا كله فقد بلغ من فجوره أن ادَّعى على الحكومة التونسية أن له مبالغ طائلة قبلها (60 مليون قرش تونسي = 40 مليون فرنك) نظير مُشْتَريات اشتراها لها لم تدفع ثمنها، وأخذت المسألة دوراً خطيراً، إذ أصبح المدعي فرنسيّ الجنسية تحميه حكومة فرنسا وتطالب بحقوقه.

هنا اتجه الباي أحمد إلى خير الدين ليذهب إلى باريس، ويخاصم ابن عياد ويبين فساد زعمه ويثبت أن عليه ـ لا له ـ ديوناً يطالبه بها، وكانت قضية هامة لو حُكم فيها لابن عياد لوقعت تونس في الإفلاس، وزاد من خطرها ما كان تحت يده من مكاتبات ومستندات رسمية دبرها هذا الماكر تدبيراً محكماً.

وظلت هذه القضية في باريس أكثر من ثلاث سنوات من سنة 1269 - 1273 هـ وخير الدين فيها يرَافِع ويدافع، وابن عياد يملأ فرنسا دَوِياً، ويساعده على ذلك ما ينفقه عن سَعَة، ويشتري الدور والأملاك في فرنسا، وعلى خير الدين أن يقاومَ كل هذا.

وأخيراً كُلفت لجنة القضايا بوزارة الخارجية الفرنسية دراسة هذا الاختلاف ورفع تقرير عنه وشُكلت لجنة تحكيم يرأسها الإمبراطور نابليون الثالث، وأصدرت حكمها وهو يقضي بتخفيض مطالب ابن عياد من ستين مليون قرش إلى خمسة ملايين، كما ألزمته بأن يدفع للحكومة التونسية 14 مليون قرش في ذمته لها، ويدفع مبالغ أخرى، فكان مكسِبُ تونُسَ من هذه القضية نحو 24 مليون فرنك. وفوق ذلك قام خير الدين في هذه السفرة بأعمال أخرى، أهمها أنه لما

حدثت حرب القرم 1270 هـ 1853م أرسل الباي أحمد لمساعدة الدولة العثمانية 14 ألف جندي بأدواتهم الحربية وأسطولاً من سبع قطع، وهذا أثقل كاهلَ تونس، فأرسل الباي إلى خير الدين بباريس مجوهرات لبيعها، وفوضه في أمر ثمنها، فلم يقبل خير الدين هذا التفويض. وظل يراجع الباي فيما يُعْرَض من ثمن، حتى أنكر عليه كثرة الاستشارة وأمر بالبيع فوراً فباع.

ولم يكف ثمن هذه المجوهرات، فكلفه الباي أن يعقد قرضاً من فرنسا، وكانت هذه مسألة خطيرة لم يستطع ضمير خير الدين أن يحتملها؛ ولاسيما أن الباي قد أصيب بالشلل وقربت منيته، فماطل وماطل، وأخذ يبعث بالاستفهام تلو الاستفهام حتى مات الباي ولم يتم عقد القرض، فكانت محمدة من محامده ذكرها له أهل تونس والباي الجديد المشير محمد باشا، وأنعم عليه برتبة فريق سنة 1272.

أفاد بقاؤه في باريس هذه المدة اطلاعاً على الدنيا الجديدة ومعرفة بنظمها واحتكاكاً برجال السياسة وفهماً لأغراضهم، ووضع عينيه على أسباب رقي الأمم وقارن بينها وبين تونس، لِمِ تأخرت وكيف ترتقي، مما كان له أثر كبير في حياته المستقبلية، كما أفادته علو شأنه في أمته وثقتها به وأملها فيه.

ومما يؤسف له أنه بعد هذه الفضائح كلها بَقي مصطفى خزنة دار المغتصب الكبير وصهر خير الدين في منصبه في الوزارة.

عاد خير الدين إلى تونس فعينه الباي محمد باشا وزيراً للحربية سنة 1273 هـ وظل في هذا المنصب إلى سنة 1279 هـ، وفي هذه الفترة قام بإصلاحات كثيرة، فأصلح مينا "حلق الوادي" وهو أعظم ميناء لتونس، وأمر بأن يقيد كل شيء يعمل في وزارته، وكان هذا النظام أول ما دخل إلى تونس.

وأنشأ مصنعاً بخارياً لبناء السفن وإصلاحها، ووسع الطرق ونظمها. ولكن أهم من ذلك كله أن الدولة العثمانية وولايتها التابعة لها والمرتبطة بها ـ ومنها تونسُ ـ مالت إلى اقتباس النظام النيابي تحت تأثير الضغط الأوربي وظهور فساد الحكم الاستبدادي، وميل خواصّ

الشعوب الشرقية إلى إصلاح الحال وإدخال النظم الحديثة ـ فكان خير الدين العقل المنظم لهذه الحركة ومَن له النصيب الأكبر في وضع القوانين لمجلس شورى منتخَب.

وصدر الأمر به سنة 1277 هـ وانتُخِب أعضاء المجلس، وكان خير الدين الرئيس الفعلي له بجانب وزارته للحربية.

ولكن هذا المجلس اصطدم بطائفتين لهما خطرهما: فرجال الدين لم يَرضوْا عنه، لأن بعض أحكام القانون سياسية لا شرعية، ولأن القانون يقضي بالحكم بالأغلبية وقد ترى الأغلبية ما لا يرضي الدين. وأصحاب السلطان وعلى رأسهم الوالي ومصطفى خزنة دار لم يرضوا عنه في باطن نفوسهم، لأنه يسلبهم سلطانهم، فأراد خير الدين أن يكون السلطان الحق للمجلس، وأراد أن يكون المجلس ستاراً شرعيّاً لتصرفهما وأداةً طيّعة لتنفيذ أغراضهما. أراده حقيقة وأراده لُعبة. أراد من كل عضو أن يقول ما يعتقد في صدق وإخلاص وجرأة، وأرادا من كل عضو أن يتحسس رأيهما فيعبر عنه، فكان النزاع وكان الخصام.

عرض على المجلس رغبة شركة فرنسية بأن تقوم بمدّ ماء زغوان إلى قرطاجنة ثم توصيله إلى المرسى والحاضرة، وفي هذا المشروع فوائد ومضارّ. وتجادل الأعضاء فيه، منهم من يحبذه لفوائده، وبعضهم يرفضه خوفاً من تغلغل النفوذ الفرنسي، ويرغبون أن يدبروا الأمر لتقوم بالمشروع الحكومة التونسية نفسها، واشتد الجدل ومالت الأغلبية إلى الرفض، وهنا قال الوالي: لقد وعدت قنصل فرنسا وعداً قاطعاً بالموافقة على المشروع. فكان خير الدين جريئاً إذ قال: فلم جمعتنا إذاً لتأخذ رأينا، وكان يكفي سماع هذا الخبر من سيادتكم؟.

وأرادوا أن يُصْرَف فاضِل الأوقاف على الإصلاحات العسكرية، واستندوا إلى فتوى من أحد العلماء المالكية، فعارض خير الدين في هذا وأوضح وجهة نظره، بأن الشؤون العسكرية لها مخصصات في مالية الدولة، ولا يصح أن تمتد الأيدي إلى فاضل

الأوقاف إلا إذا عجزت مالية الدولة واستنُفدت في وجوهها العادلة، أما إذا كانت تُبعثر هنا وهناك ويُصرف منها على الترف والشهوات فلا يصح أن تمتدَّ الأيدي إلى فاضل الأوقاف.

وناحية ثالثة لم يكن يُرضيها النظام الشوري، وإقامة العدل، وهي الحكومة الفرنسية إذ ذاك، لأن شمول العدل والنظام الشوري واستقرار الأمور يضيع على فرنسا مطمحها في الاستيلاء على البلاد، فكان ممثلو فرنسا يحرّضون الباي على التلاعب بالمجلس الشوري. ولما حضر نابليون الثالث إلى الجزائر وتوجه إليه باي تونس وقدم له نسخة من قانون الشورى الذي وضعه، قبلها منه بالشكر ظاهراً، نَفَدها أمام رجاله سراً وقال: "إن العرب إذا استأنسوا بالعدالة والحرية لم نسترح معهم في الجزائر". وهكذا اتجهت سياسة فرنسا في هذه البلاد إلى التظاهر بتشجيع حركات الإصلاح والعمل سرَّاً على إحباطها.

هكذا كل يوم مشكلة وكل يوم نزاع، والإصلاح مستحيل مع هؤلاء، فاستقال خير الدين، وقال: "لقد حاولت أن أسير بالأمور في طريق العدالة والنزاهة والإخلاص فذهب كلُّ مسعاي سُدّىً، ولم أشأ أن أخدَع وطني الذي تبنّاني بتمسكي بالمناصب. ورأيت أن الباي وعلى الأخص وزيره الرهيب العظيم الجاه مصطفى خزنة دار لا يلجآن إلى التشريعات الإصلاحية إلا لتبرير سيئاتهما تبريراً قانونياً، فقدمت استقالتي سنة 1279 هـ من رياسة المجلس ومن وزارة الحربية وعدت إلى حياتي الخاصة".

لم يشأ أن يثور بعد اعتزاله، ولا أن يكون حزباً يناضل في سبيل تحقيق العدالة، فذلك ما لم يتفق ومزاجه ولم تتهيأ له البلاد، ثم هو تربطه بركني الاستبداد روابط تقيد حريته، فالباي مولاه، ومصطفى خزنة دار صهره، وموقف البلاد إزاء المطامع الأجنبية دقيق، لهذا كله اعتزل وسالم، ونَفَض يده من العمل الرسمي مع الإلحاح عليه في العودة، ولكنه لم يقطع علاقاته الشخصية بالباي والوزير، واستمر على هذه الحال تسع سنوات حفلت بأمرين جديرين بالذكر: الأول سفره سفيراً من الباي إلى ألمانيا وفرنسا وإنجلترا

وإيطاليا والنمسا والسويد وهولندا والدانمارك وبلجيكا في مهمة خاصة، فمكنته هذه ورحلته السابقة ـ كما يقول ـ من دراسة الأسس التي قامت عليها المدنية الغربية وبنت عليها الأمم الكبرى قوتها ونفوذها. والثاني تأليفه كتاب "أقوم المسالك، في معرفة أحوال الممالك".

- 3 -

عكف خير الدين في أثناء اعتزاله الوزارة على وضع كتاب سماه "أقوم المسالك، في معرفة أحوال الممالك" وسُميت ترجمته الفرنسية "الإصلاحات الضرورية للدول الإسلامية" وكان في ذهنه عند تأليفه أن يحذُوَ حذْوَ تاريخ ابن خلدون، يؤلفه بروح العصر، ومطالب العصر؛ فاشتمل أيضاً على مقدمة وتاريخ. فأما المقدمة فقد أراد منها البحث في حالة البلاد الإسلامية وأسباب انحطاطها بعد ازدهارها وكيفية إصلاحها.

وأما التاريخ فقد عرض فيه حال الممالك الأوروبية، لا من ناحية تعاقب ملوكها وتسلسل حروبها، ولكن من ناحية وصف كل دولة في إدارتها وجيوشها ونظام الحكم فيها، وماليتها وكيفية ضبطها، وقوتها البرية والبحرية. وقد وصف ـ على هذا المنوال ـ الدولة العثمانية وفرنسا وإنجلترا وروسيا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا والبرتغال وهولندا والدانمارك وبلجيكا وسويسرا واليونان، ثم وصف جغرافية أوربة الطبيعية الخ، وكان أهم ما يقصد من ذلك أن يضع أمام القارئ العربي صورة لنهضة أوربة وأسبابها وطريقة الحكم فيها، حتى يقتبس المسلمون منها ما يصلح لهم، وحتى يثير عندهم الرغبة في الاقتداء بهم والعمل على منوالهم، وقد أوْدَعه خلاصة ما رأى في سياحاته وما قرأ وما فكر.

وأهم ما يعنينا الآن مقدمته التي تشرح حال المسلمين وحاجتهم إلى الإصلاح وطريقته؛ وهو فيها يَنْعَى[1] على المسلمين كراهيتهم الأخذ بأساليب المدنية الغربية في الإصلاح واعتقادهم أن كل ما صدر عن أوربة حرام، ويعللون ذلك بعلل مختلفة؛ كأن يقولوا إنها مخالفة للشريعة الإسلامية، أو يقولوا إنها إذا ناسبت الأمم الغربية فلا تناسب الأمم الشرقية، لأن كل أمة لها موقفها الاجتماعي وعقليتها وتاريخها؛ أو أن يقولوا إن المدنية الغربية بطيئة الإجراءات وخاصة في طريق القضاء، أو أن يقولوا إن النظم الغربية تستلزم التوسُّع في الإدارة وتقسيم الأعمال، وهذا يستلزم كثرة الوظائف والموظفين، وليس هناك مال يكفي لكل هذا، فلا بد إذاً من فرض ضرائب جديدة، والبلاد فقيرة وأهلها لا يحتملون زيادة الضرائب.

وقد وقف نفسه للردِّ على هذه المزاعم:

فأما الزعم الأول فالتمسك بالدين لا يمنع من النظر فيما عند الأمم الأخرى، والأخذ بأحسنه فيما يتعلق بالمصالح الدنيوية، فليس بالناس يُعرف الحقّ، ولكن بالحق يُعرف الناس، والحكمة ضَالَّة المؤمن يأخذها حيث يجدها، وسَلْمان الفارسي لما اقترح على النبي صلى الله عليه وسلم حفْر خندق في غزوة الأحزاب أخذ برأيه ولم يكن ذلك معروفاً عند العرب، والمسلمون الأولون أخذوا علوم اليونان ومنها المنطق واستفادوا منها، وقال الغزالي: من لا معرفة له بالمنطق لم يوثق بعلمه، وأبو بكر الصديق قال لخالد عند إرساله لقتال أهل الردة في اليمامة: "إذا لاقيت القوم فقاتلهم بالسلاح الذي يقاتلونك به، السهم للسهم، والرمح للرمح، والسيف للسيف" ولو أدرك هذا الزمان لقال المِدْفع للمِدْفع والبارجة للبارجة والمدرَّعة للمدرَّعة. ولا يمكن الاستعداد لمنازلتهم بمثل سلاحهم إلا بالعلم وأسباب العمران. ثم نقول لهؤلاء الذين لا يستحسنون ما تأتي به المدنية الغربية: لماذا تنكرونها فقط في التنظيم ونتائجه والإدارة وضبطها والعدل وإقامته،

---

[1] ينعَى: يعيب.

ولا تنكرونها فيما تتنافسون فيه من الملابس والأثاث والمخترعات وأسباب الترف؟ فالذين صنعوا أدوات الزينة والنعيم هم الذين صنعوا الأسلحة واخترعوا العلوم والمعارف. أنفتَح الباب للأخذ منهم فيما لا ينفع ونُغلقه أمام ما ينفع؟ أنصُدُّ عن الأخذ عنهم ونتركهم يستغلون زراعتنا ومواردنا وينعمون بها، ثم نكتفي منها بفتاتِ موائدهم؟ إنهم ما وصلوا إلى استغلالنا إلا بمعارفهم، ولم ترتق معارفهم إلا بالعدل والحرية، فكيف يَسُوغ لعاقل أن يصدّ عن ذلك ويغمض عينه ولا يسمح به، استناداً إلى خرافات وأوهام؟ وقد قال بعض المؤلفين في السياسة الحربية: "إن الأمة التي لا تجاريها جاراتها في معداتها الحربية ونظمها العسكرية، توشك أن تقع غنيمةً في أيديهم، وإنما خص النظم الحربية بالذكر لأنها موضوع كتابه، وإلا فالحكم عامّ في كل مرافق الحياة.

"ومن دواعي الأسف أن هذه النظرة إلى المدنية الغربية لا تزال تؤثر في بعض البيئات في الأمم الإسلامية وإن اختلفت درجاتها في الإصغاء إلى هذه الدعوة كالتخويف من تعليم المرأة ومن الاستمداد من التشريع الحديث. ولعل هذا من الأسباب التي جعلت النصارى والمسلمين إذا اجتمعوا في قطر واحد كالنصارى أسبقَ إلى تشرُّب المدنية الغربية والاستفادة منها، ثم يأتي بعض الناس فينُسبون ذلك إلى طبيعة الإسلام، والإسلام لا يمنع أن يقتبس الصالح من الأمر حيث كان وممن كان".

أما هؤلاء الذين يقولون إن المدنية الغربية لا تناسب الأمم الإسلامية لموقفها الاجتماعي، فنقول لهم: إن أوربة عندما بدأت نهضتها كانت أسوأ حالاً منا؛ والأمة الإسلامية ـ كما يشهد المصنفون ـ لها من عقليتها واستعدادها وسابق مدنيتها ما يمكنها من السير في هذا المجال إذا أذكِيَت حريتها الكامنة، فالحرية والطموح غريزتان في المسلمين تأصلنا فيهم بتعاليم دينهم؛ غاية الأمر أنه من الواجب على القادة الذين يضعون لهم أسس حريتهم ونظم إدارتهم أن يراعوا ظروفهم، وأن يقدموا لهم من ذلك ما يستطيعون هضمه، ثم يوسع هذا شيئاً فشيئاً بنمو أسباب التمدن.

أما القول ببطء الإجراءات، فإن كان سببه إعطاء الحوادث حقها من التأمل حتى يتضح عند الحاكم وجه الحق، بالإفساح للمتخاصمين أن يُدْلوا بحججهم، فلا يصح أن يشكو منه جاهل أو متجاهل، وهذا خيرٌ ألف مرة مما يجري الآن من الإسراف في الحكم من غير تمحيص ومن غير إبداء أسباب. وإن كان سببه تقصير الموظفين أو قصورهم، فماذا على الحكومة أن تختار الأكفاء وتدربهم، وكذلك الشأن في الأمور السياسية الكلية، لا بأس من البطء فيها إذا كان البطء لتحري الصواب ومعرفة وجه الحق. ومع هذا فقد يحدث البطء والتحفظ أول الأمر، فإذا مَرَنت الأمة عليه أسرعت السير في شؤونها.

وأما الخوف من زيادة الضرائب فالأمر بالعكس، لأن الحكم الشوري يجعل الضرائب لا تفرض إلا حيث المصلحة، وبرضا أهل الحَلّ والعقد. على حين أن الحكم الاستبدادي يجعل فرض الضرائب شهوة من شهوات الحاكم المستبد. ثم إن تنظيم الدولة وشؤونها يضبط دخلها وخرجها يزيد في مصادرها فتنعم الأمة بماليتها، وإذا فرضت ضريبة فلأنها تفيد أكثر مما تضر، لا كما هو حاصل الآن من وضع إيراد الدولة تحت تصرف الحكام يصرفون منه على شهواتهم من غير حساب، فإذا أسرفوا وأتلفوا لم يجدوا إلا باب فرض ضرائب جديدة.

الحق أن الأمم الإسلامية لا تصلح إلا بالنظام الشوريّ الذي يقيد الحاكم، وبأن نستمد من النظم الغربية والمدنية الحديثة ما يصلحنا. والحق ـ أيضاً ـ أن الذين يقفون أمام هذه الدعوة إلى الإصلاح إما جهلة لا يعرفون كيف تقدم العالم وكيف أصلح عيوبه وأسس نظمه، ثم يدعوهم الجهل إلى الاستنامة لنظمهم المعيبة وطرقهم المعوجَّة، ويرون أن الإصلاح بدعة من بدع آخر الزمان؛ وإما قوم يعلمون وجوه الإصلاح ومزاياه، ولكنهم يريدون أنها تسلبهم منافعهم الشخصية التي تتوافر لهم بالاستبداد والفوضى لا تتوافر بالنظام، فيحاربونها تحت ستار ما يزعمون من أضرار، وما يحتفلون من أسباب، وهم في باطن أنفسهم يعرفون أنهم كاذبون.

إن العدل والحرية هما ركنا الدولة، وهما اللذان كانا في المملكة الإسلامية فأزهرت ثم فُقِداً فذبُلَت، ولم يكونا في الدول الأوربية فانتابها الضعف والفساد، ثم كانا فصلح حالها، وليس جو أوربة أحسن الأجواء، ولا أرضها أصلح الأراضي، وإنما بلغ أهلها ما بلغوا بالتقدم من العلوم والصناعات واستخراج كنوز الأرض بعلوم الزراعة، وكَسْب المال بعلوم التجارة؛ وهذا كله لم يكن إلا وليداً للعدل والحرية، وهذه قوانين طبيعية لا تتخلف. عدل وحرية يتبعهما عمران، وظلم واستبداد يتبعها خراب.

ثم إن العدل والحرية يجب أن يوضع لهما من النظم ما يضمن وجودهما ودوامهما. وليس هناك ضمان إلا بالمجالس النيابية، فقد يكون في الملوك من يحسن تصرفه بدون مشورة. ولكن يكون ذلك موقوتاً بوقته، يزول بزواله، فوجب أن يحاط الملوك بأهل الحل والعقد، يشاركونهم في كليات السياسة، ويكون الوزراء مسؤولين أمامهم. وكل ما أصاب الأمم الإسلامية إنما أصابها من ترك الأمر فيها إلى مشيئة حاكمها وخضوع الوزراء لإشارته. وقد قال ابن العربي في الضرائب التي تؤخذ جهراً لا سراً. وتتفق بالعدل لا بالاستئثار، وبرأي الجماعة لا بالاستبداد. وقد كنت أتحدث مع كبير من أعيان أوربة فأسْهَبَ في مدح ملكه وتضلّعه من أصول السياسة وصواب منهجه، فقلت: فلم إذاً تخاصمونه في الحرية السياسية؟ فقال: من يضمن لنا بقاء استقامته واستقامة ذريته من بعده؟

وقد اقتبس بعد ذلك من أحد مؤرخي نابليون قوله: "إن نابليون أخطأ ـ مع عظمته ـ لاستبداده، ويجب على الأمة الفرنسية أن تتعلم من غلطاته. وإن ما ينبغي أن يستخلص من كل تاريخه أنه لا يليق بأيّ فرنسيّ من غلطاته. وإن ما ينبغي أن يستخلص من كل تاريخه أنه لا يليق بأيّ فرنسيّ أن يبذل حريته لأي أحد، كما لا ينبغي له الإفراط في حريته حتى لا تنتهك حرمتها".

وقد أيد خير الدين نظرته هذه بالرجوع إلى التاريخ، فاستشهد بالمملكة الإسلامية، بم تقدمتْ وبم تراجعتْ، وبأوربة بم تأخرت وبم نهضت وبم نمَتْ.

وحمّل المسلمين تبعة تأخرهم، ولكنه لم يهمل نقد أوربة إزاء الدول الإسلامية في تصرفاتها، وخاصةً في مسألة "الامتيازات الأجنبية" استناداً إلى عهود قديمة مضى وقتها؛ ولم تكتف بالعهود. بل توسعت في تفسيرها ما شاءت لها قوتها. وهذا كله مخالف للقانون الأساسي البديهيّ، وهو أن من دخل مملكة فلابد أن يخضع لأحكامها، فإذ ادعى أن المملكة الإسلامية متأخرة في نظمها فهناك من هم أكثرهم تأخراً منها. وأوربة لا تطلب امتيازات فيها. وإذا ادعى كراهية بعض عوام المسلمين للنصارى وحَيْفَهم[1] عليهم أمكننا الادعاء بحق كراهِيَة بعض النصارى للمسلمين وحيفهم عليهم؛ فلا مبرر إذاً لهذه الامتيازات.

يضاف إلى ذلك ما تقوم به بعض ممالك أوربة من وضع العراقيل في سبيل تنظيم الممالك لشؤونها، وإدخال وسائل الإصلاح التي تراها وإيقاع الدول الإسلامية في حيرة بين مطالبة لها بالإصلاح وإعاقة للإصلاح.

ثم من أهم العوائق في تقدم المسلمين وجود طائفتين متعاندتين: رجال دين يعلمون الشريعة ولا يعلمون الدنيا، ويريدون أن يطبقوا أحكام الدين بحذافيرها بقطع النظر عما جدَّ واستُحدث، ورجال سياسة يعرفون الدنيا ولا يعرفون الدين، ويريدون أن يطبقوا النظم الأوروبية بحذافيرها من غير رجوع إلى الدين. فنقول للأولين: اعرفوا الدنيا ونقول للآخرين: اعرفوا الدين. فاعتزل العلماء شؤون الدنيا ثم تحكمهم ضرر أي ضرر. وجهل رجال السياسة بأصول الدين ضرر مثله. والواجب امتزاج الطائفتين وتعاونهما. فهناك أصول الدين يجب أن تراعى، وهناك أمور لم ينص عليها تقتضيها مصالح الأمة يجب أن تقاس بمقياس المنفعة والمضرة ويُعمل فيها العقل.

ثم أبان الأسس التي بنيت عليها المدنية الحديثة التي يمكن اقتباسها ونشرها في المملكة الإسلامية، كالحرية بنوعيها، وهما:

---

[1] الحيف: الظلم والجور.

الحرية الشخصية وهي "إطلاق التصرف للإنسان في نفسه وكسبه، مع أمنه على نفسه وعرضه وماله، ومساواته لأبناء جنسه في الحقوق والواجبات"، والحرية السياسية وهي المشاركة في نظام الحكم والمداخلة في اختيار الأصلح ـ ثم تأسيس القوانين بنوعيها، وهي قوانين الحقوق المرعية بين الدولة والرعية، وقوانين حقوق الأهالي فيما بينهم ـ ثم مسؤولية الوزراء أمام الأمة في مجلسها الشوري الخ.

وختم ذلك بإبداء رأيه في أن إيجاد هذه النظم من لوازم وقتنا، وكل من وقف في سبيلها عديم الأمانة والنصيحة لدولته ووطنه.

هذه زُبدة ما في المقدمة التي تبلغ نحو مائة صفحة، ومنها نعرف وجهته في الإصلاح. ونعود بعد ذلك إلى متابعة حياته.

- 4 -

بعد أن ترك خير الدين الوزارة وتخلى عن الكفاح وانصرف إلى التأليف خلا الجو لمصطفى خزنة دار، يثقل كاهل الشعب بمظالمه ومغانمه. والباي محمد الصادق باشا الذي تولى سنة 1276 رجل لَيّن سهل ناعم، لا يحب أن يواجه صعوبة ولا يسمح بمشكلة، يسلم الأمور لوزيره ولا يسأله عما يفعل، ولا يهمه منه إلا أن يواليَه بالمال الكثير الذي يصرفه في تَرَفه. والمجلس النيابي الذي أنشئ وَجد فيه مصطفى خزنة دار عائقاً لتصرفاته واستبداده، فألغاه وألغى كل ما تبعه من نظم، وعادت الأمور إلى مجراها الأول، واستردّ الوزير حريته في فرض الضرائب وطرق تحصيلها.

ومازال مصطفى خزنة دار يستنزف موارد البلاد حتى نضب معينها[1] فاتجه إلى أوربة يستدين منها. وفي أقل من سبع سنوات بلغ الدين (150 مليون فرنك).

ووقعت البلاد في شر محْنة؛ فمن ناحيةٍ ثار الشعب من ضرائب تضاعفت، بل بلغت في بعض الأحيان ثلاثة أمثالها، إلى جَوْر وفساد

---

[1] المعين: الماء الجاري.

في التحصيل والتوزيع أسلما إلى الإفلاس، حتى بلغ الحال آخر الأمر أن لم يكن في خزانة الدولة مرتبات أسرة الباي ولا مرتبات الموظفين ورجال الجيش ولا فوائد الديون، وحتى اضطُرَّ أوساط الناس إلى إخراج نسائهم لجمع العُشْب وعروق الأشجار للاقتيات بها. ومن كان عنده قليل من المال أخفاه حتى لا يصادر، وتظاهر بالفقر، وكان يغلي القمح في الماء ليلاً من غير طحن حتى لا يتهم بالرخاء، وفشا المرض والموت إلى أفظع حد، ومن ناحية أخرى تدخلت الدول الأوربية تريد المحافظة على ديونها. واقترحت فرنسا تشكيل لجنة مالية ووافقتها إنجلترا وإيطاليا، وصدر مرسوم من الباي سنة 1286 هـ بتشكيلها من فرنسيين وإنجلترا وإيطاليين، يرأسها موظف تونسي، وجعلت مهمتها توحيد الدَّين وتحديد الفوائد وإدارة المرافق التي خصصت لهذا الدين.

وهكذا كانت رواية واحدة مُثلت مرة في مصر، ومرة في تونس، لم يختلف فيها إلا أشخاص الممثلين.

عند ذاك اتجه الباي إلى خير الدين يطلب منه أن يرأس هذه اللجنة فاعتذر، فألح عليه حتى قبل، وحمل مهمة شاقة في الداخل والخارج ومنح لقب وزير، ومن الغريب أن الباي احتفظ بمنصب الوزير الأول لمصطفى خزنة دار، الذي أسلم البلاد للدمار! وليس لهذا سبب إلا ضعف الباي وشلله أمامه كما يَشَلُّ العصفور أمام الثعبان.

واجه خير الدين مشاكل من أعسر الأمور؛ فاللجنة المالية المختلطة تريد أن تضع يدها على كل شيء في الدولة، لأن كل شيء متصل بالمال، حتى المعلم في المدرسة والقاضي في المحكمة، ولو فعلت لأضاعت استقلال البلاد بتاتاً.

ومشكلة ثانية، وهي كيف ينقذ هذا الشعب بعد ما احترق بالجوع والفقر والمرض وفِقْدَانِ الثقة بالحكومة؟

ومشكلة ثالثة، وهي بقاء مصطفى خزنة دار رئيساً للوزارة، وهو الشَّره في المال كشرهه في حب السلطة والجاه. ومن ذاق لذة

ذلك لم يتنحَّ عنه اختياراً، وهو بطبيعته وتاريخه عدو كل إصلاح، غيور ممن يشاركه جاهه.

فأما المشكلة الأولى فاستطاع خير الدين ـ بالمفاوضات الطويلة مع اللجنة ومع الدول ـ أن يُحصرَ دارة نفوذها في موارد محدودة، وأن ينظم ميزانية الدولة ويضمن للدائنين دفع الفوائد في حينها، إلى غير ذلك من وسائل تعهد بها ونفذها في ضبط وأمانة.

وأما المشكلة الثانية فقد رأى كثرة الضرائب قد أضاعت الزراعة وجعلت البلاد خراباً، ولم يزرع الناس إذا كان نتاج زرعهم ليس لهم، وكان زارعهم وغير زارعهم يستويان في الفقر، فخفف من الضرائب، ونظم طرق تحصيلها، وأخذ بالشدة من تلاعب فيها، وشجع غرس الزيتون والنخيل، فأعفى كل من غرس منهما جديداً من الضرائب عليها مدة عشرين عاماً، وأرجع من فَرَّ من الأهالي لكثرة مطالب الحكومة، وأسقط ما عليهم، وأمر بالنظر في شكايات من نُكب من الناس على يد الحكومة السابقة، ورد ظلامته، ووضع صندوقاً كبيراً في ميدان تونُس يضع فيه كل متظلم ظلامته وأعفاه من التصريح باسمه، وجعل مفتاح الصندوق معه، هو الذي يفتحه بنفسه، وهو الذي يقرأ الظلامات ويوقع فيها بما يراه من تحقيق العدل.

وأما المشكلة الثالثة فقد ظل في نزال[1] مع مصطفى خزنة دار حتى زادت فظائعه وانكشفت، وألح الناس بوجوب عزله، وسقط سقطة ضبطتها اللجنة المالية، فعزل من منصبه سنة 1290 هـ، وأقام الناس لذلك من الزينات والأفراح في جميع بلدان القطر ما لم يُسمع بمثله، وأصدر خير الدين قراراً بمحاكمته على ما اتهم به فحوكم، وألزم بدفع خمسة وعشرين مليون فرنك.

وبذلك خُتمت حياة مصطفى خزنة دار السياسية، وهي حياة تعدُّ مأساة الأمة، من ناحية موت الضمير في رجل وُكِلَت إليه شؤون

---

[1] نزال: عراك.

البلاد في أوقات حرجة ملأى بالمطامع الدولية، ومن ناحية خنوع الشعب لهذا الرجل ومظالمه مدة تزيد على ثلاثين عاماً، من غير أن يكون هناك رأي عام يُزلزله وينحِّيه وقوة الاحتمال في مثل هذه الأحوال من أكبر ما تمنى[1] به الشعوب.

من ذلك الحين كان خير الدين هو الوزير الأول، أطلقت يده فيما يرى إصلاح، ولا يغل يده إلاّ مطامع الدول.

تولى إصلاح القطر من جميع نواحيه السياسية والزراعية والتعليمية والاقتصادية والمالية والإدارية والقضائية.

فسلك من قناصل الدول مسلكاً حازماً صريحاً، يُصغي إلى طلباتهم المعقولة ويرفض غير المعقولة، مع ذكر الأسباب المفصلة للرفض، فلا يُداهن ولا يُرائي. ولذلك احترموه ولو خالفوه، وقد يضعون العقبات في سبيله باطناً، ولكنهم يجاملونه ظاهراً.

وقسم الأراضي الزراعية إلى مناطق، وتحرى اختيار الأمناء لجلب الضرائب، ومن سهل عليه دفع الضريبة نقداً فعل، أو محصولاً فعل، ونكل بمن ثبتت عليه الخيانة من الجباة، ونظم العلاقات بين الملاك والمزارعين وبين الملاك والحكومة. وألغى الضرائب غير المعقولة وغير المستطاعة، وأبطل الحملات العسكرية لتحصيل الضرائب بالقوة، لأنها كثيراً ما كانت تؤول إلى أعمال السلب والنهب، فعادت للناس طمأنينتهم، وعادت للحكومة هيبتها واحترامها، وانصرف الناس إلى الزراعة بعد أن كانوا ينصرفون عنها. ولما ترك الحكم كانت مساحة الأرض المستغلة مليون هكتار، وكانت حين تسلم زمام الحكم ستين ألفاً.

وفي التعليم أنشأ مدرسة عصرية تعلم فيها العلوم العربية والشرعية، وبجانبهما الثقافة العصرية مع تعليم اللغات التركية والفرنسية والإيطالية، وأصلح التعليم بجامع الزيتونة، وجمع الكتب

---

[1] تمنى: تصاب.

المبعثرة في المساجد، وكون بها مكتبة كبيرة، ووهب لها من عنده ألفا ومائة كتاب مخطوط، ونظمها تنظيماً حديثاً، وحسَّن مطبعة الدولة ووَكَل إليها نشر الكتب العلمية والأدبية، وأصلح إدارة "الرائد التونُسي" وهي الصحيفة الرسمية الحكومة، وشجع على نشر المقالات فيها، كان ينشر فيها أفكاره السياسية، وألزم الموظفين بقراءتها، والتفت إلى الناحية الاقتصادية، فنظم الجمرك ورفع ضريبة الاستيراد 5% وخفض ضريبة الإصدار، وأنشأ المخافر الجمركية لمنع التهريب. ونظم الوظائف الحكومية وعيَّن مرتباتها، كما حدّد مرتبات القصر، ووضع ميزانية الدولة على أساس صحيح، وضبط المكاتبات في الدواوين، وأنشأ السّجلاّت للصادر والوارد، ورتبّها حتى يسهل الرجوع إليها.

وجدّ في إحياء الصناعات المغربية كالنقش على الجِصّ والقباب، وكان يأتي بِمَهَرة الصناع من البلاد، ويَعْهَدُ إليهم بتعليم طائفة من الشبان.

ونظم الأوقاف وكانت فوضى في البيع والشراء وصرف الرَّيْع، بعد أن كانت قد آلت أعيانُها إلى الخراب، فجمعها في إدارة واحدة، وجعل عليها السيد محمد بيرم ومعه مجلس يُعِينه في تنظيمها.

ونظر فرأى الناحية التشريعية والقضائية في البلاد مضطربة، والأجانب لا يخضعون لقانون البلاد، وليس من السهل إقناعهم بالخضوع، إذ ليس في البلاد قانون، فكان لكل من المذهب الحنفي والمالكي قاض مطلق الحكم في الحوادث، وقد يحدث أن الحادثين المتشابهين يقضي فيهما قضاءان مختلفان. ومن المبادئ التي يدين بها الأجانب أن تكون القوانين معروفة قبل الأحداث، ليست مجالاً للاجتهاد ولا التلاعب، فعهد خير الدين إلى مختصين بدراسة القوانين المعمول بها في الدولة العثمانية وفي مصر وفي أوربة، وأن يستخرجوا منها قانوناً يناسب القطر التونسي، واستمرت اللجنة في عملها، ولكن خرج الوزير من الوزارة قبل أن يتمّ.

هكذا نقل البلاد من حالة كَرْب وضيق وظلم وفوضى إلى حالة أمن ورخاء، وضبط ونظام، ورقّي في كل مرفق من مرافق الحياة، وكأنه بذلك كان يستملي نهضة مصر فيدخلها معدّلة في بلاده.

أما المشاكل الدولية التي كانت أمامه فمعقدة مشتبكة ملتوية: فرنسا تنظر إلى تونس نظرة الصائد نَشَر شبكته، تحاول أن تجد من كل حادثة منفذاً لتدخلها، فإذا لم تجد الحادثة خلقتها خلقاً وتدَّعي أن لها الحق فيما لها فيه حق وما ليس لها فيه حق، وتصطنع الرجال تمنّيهم المناصب الكبيرة حتى منصب الباي، إذا هم أعانوها وفسحوا الطريق أمامها لبسط حمايتها.

وإيطاليا ليست أقل من فرنسا مطمعاً. ولما حدثت الحرب بين فرنسا وألمانيا سنة 1288 هـ - 1871م، وخرجت منها فرنسا منهزمة اشتدت مطامع إيطاليا وجدّت في سعيها لتوسيع نفوذها، فكانت تونس مسرحاً لتسابق الدولتين، كلٌّ تدبر دسائسها، وكل تُوعِزُ إلى جرائدها بما يتفق ومصلحتها.

وسط هذه المطامع والنُّذر بالخطر رأى خير الدين أن يضرب الدولتين بعضهما ببعض، وأن يقوّي الصلة بين تونس والدولة العثمانية، لأن تونس لا تستطيع القيام بنفسها، فرسم خطة توثيق الصلات وتحديد العلاقات بينهما؛ وكانت علاقات غامضة غير محدودة، فسعى سعياً متواصلاً، وخاطب الباب العالي في هذا الشأن وشرح له وجهة نظره، فأجيب إلى طلبه. وطلب الباب العالي إرسال مندوب إلى استنبول للمفاوضة في هذا الأمر، فوقع الاختيار على خير الدين نفسه، فسافر وفاوض ونجح في استصدار فرمان يحدد هذه العلاقة، ويقرر أن تونس إيالة عثمانية ولواليها الحق في تولية المناصب الشرعية والعسكرية والملكية والمالية لمن يكون أهلاً لها، وفي العزل عنها بمقتضى قوانين العدل، وفي إجراء المعاملات المعتادة مع الدول الأجنبية. ما عدا الأمور السياسية التي تمس حقوق الدولة العثمانية، كأصول السياسة والحرب وتغيير الحدود، كما تضمن إقرار الوراثة في العائلة المالكة، مع المحافظة على الخطبة

للسلطان وضرب السكة[1] باسمه، وإجراء الأمور الداخلية في البلاد على قوانين الشرع ومراعاة قواعد العدل التي يقتضيها الوقت والحال، والتي تؤمن الناس في النفس والعِرْض والمال. وقد صدر هذا الفرمان سنة 1288، واستقبله الأهالي بالسرور.

وأخذ الباب العالي على عاتقه السعي في موافقة الدول عليه، ولكن مشاكله واضطراب أموره الداخلية والخارجية حالا دون إتمامه، وأبت فرنسا الموافقة عليه لأنه يعوقها عما تنويه لتونس.

هذه خُطة خير الدين، إصلاح في الداخل في كل ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية، وإصلاح في الخارج يربط البلاد بالدولة العثمانية ربطاً وثيقاً يناهض به أطماع فرنسا وإيطاليا. ولكن عَوَّدنا التاريخ ألا يأتي مصلح بمثل ما أتى به خير الدين إلا أوذِي.

- 5 -

بعد أن سار شوطاً بعيداً في طرق الإصلاح كانت تتجمع عناصر مختلفة تعاديه، وتضع العراقيل في سبيله، وتشيع الأخبار عن خيانته وسوء قصده، وتفسر بالشر بعض ما يأتي من الخير؛ وتجسّم بعض ما يرتكب من أخطاء، ولابد لكل مصلح من أخطاء.

فالباي (محمد الصادق) كان مصطفى خزنة دار الناهب السارق الخائن أحبّ إليه من خير الدين النزيه العادل الحازم، فهذا لم يكن يعطيه من المال إلا ما تقرر له في الميزانية، وذلك يعطيه ما يشتهي ليأخذ لنفسه ما يشتهي، وهذا حازم لا يجيز من الأمر إلا ما وافق العدالة ومصلحة الشعب، وذاك يقبل الشفاعة والرجاء ولو على حساب العدالة ومصلحة الشعب، وهذا جادّ خشن الملمس، وذاك ناعم هين لين، والأمراء من مثل "الباي" يرضيهم المظهر ومن يجيب رغباتهم، أكثر مما يرضيهم المخبر ومن يقدر التبعات.

---

[1] السكة: الأداة التي تضرب عليها النقود المعدنية.

لذلك كرهه الباي وعاداه، ولكنه رأى تعلق الناس به فجاراه وداراه، وخالفه سراً ووافقه جهراً.

ثم هناك أعوان مصطفى خزنة دار الذين كانوا يأكلون من فتات مائدته، ويسرقون درهماً إذا سرق ألفاً، ويكسبون بالوساطة والشفاعة، وينهبون من الضرائب غير المضبوطة، قد رأوا خير الدين يسد في وجههم الباب ويحصنه بالعدالة، ويضع من النظم ما يفقرهم ليغني الشعب، ـ هؤلاء الذين لا يعجبهم النور، وإنما يعجبهم الظلام، قد كرهوه أيضاً، وأخذوا يدسون له الدسائس وينصبون له الشباك.

وهؤلاء أيضاً فئة اشترت ذممهم إيطاليا أو فرنسا ومنَّتهم الأماني بالمناصب والمغانم إذا هم أعانوها في خطتها، دبَّروا لها الاضطراب الذي يمكن من سلطانها، وخلقوا الأحداث التي ترتكن عليها في تدخلها.

وهذه فرنسا كرهت أشد الكره من خير الدين ما يقوم به من حركات لربط تونس بالدولة العليا ربطاً محكماً، فهي تريد عزلتها ليسهل الاستيلاء عليها، حتى إنه في إحدى سفرات خير الدين إلى استنبول ركب السفينة من ميناء تونس وقبل أن تُقلع أعلن أن قادماً أتى لزيارته، وإذا هذا القادم هو القومندان المساعد لبارجة فرنسية كانت راسية في الميناء، فسأله هل يعتزم السفر؟

أجاب: نعم. فقال: إن قائده يرجو منه أن يؤخر سفره يومين أو ثلاثة حتى يتلقى القنصل التعليمات من باريس.

خير الدين: أنت رجل عسكري مثلي تعلم أني لا أستطيع مخالفة أمر حكومتي إلا إذا خالفت واجبي، ولست أملك حرية الاختيار بين طاعتي للواجب، ومجاملتي لقائدك، وإذاً فأنا راحل في الساعة التي حددتها.

الضابط: في هذه الحالة أحذرك وأنذرك بأن قائدي ـ مع الأسف ـ سيمنعك بالقوة.

خير الدين: كان الأولى أن تبدأ مهمتك بهذا الكلام، ولست في منزلة تجعلني أتلقى الأوامر من قائدك، ولست مغيراً قراري، والحكومة التونسية مطلقة الحرية في تصرفها. وسأمنحك الوقت الكافي للعودة إلى بارجتك وتبليغ قائدك ما قلت، وستقوم الباخرة في موعدها. وإذا كان قائدك سينفذ تهديده فإني أعرف كيف أقابله بالمثل وبالوسائل التي أملكها وأحمله تبعة ما يحدث.

وتحركت السفينة في المساء وطاردتها البارجة الفرنسية ترسل الإشارات بالوعيد وتأمر بالوقوف من غير جدوى حتى الصباح، واستمر في طريقه، وعادت البارجة الفرنسية.

كل هذه القوى تجمعت لمعاكسته في وزارته، وانتهزت الفرصة لاتهامه بما يسقط منزلته. وربما كان أهم ما وجه إليه من تهم أمران:

1 ـ اتهمه خصومه السياسيون بأنه منح امتيازاً لشركة فرنسية بمد خط حديدي بين تونس والجزائر، وهو يعلم مطامع فرنسا ويعلم امتلاكها للجزائر، فمد هذا الخط يمكنها عند إرادتها احتلال تونس أن تغزوها من الجزائر. وفي ذلك خطر أي خطر، وقد أطنبوا في هذه التهمة، وأحكموا خطتهم، وأرادوا أن يضربوا عصفورين بحجر، فمن ناحية يسيئون سمعته عند المواطنين الوطنيين، ومن ناحية يشوهون منزلته عند الدولة العثمانية التي تعتقد أنه رجلها، يعمل لصالحها وصالح تونس يربط العلاقة الوثيقة بينهما.

وكان دفاع خير الدين وحزبه عن التهمة أن لهذه المسألة تاريخاً، وهو أنه في عهد وزارة مصطفى خزنة دار طلبت شركة إنجليزية مد خط حديدي بين تونس وميناها "حلق الوادي" فأجيبت إلى طلبها، وأنشأته فعلاً ثم باعته إلى شركة إيطالية، وبعد مدة وجيزة طلبت شركة إنجليزية أخرى مد خط يسير من تونس إلى داخل البلاد حتى سوق العرب، ثم تمتد إلى "كيف" مركز الصناعة الزراعية في البلاد، وينتهي في منتصف الطريق بين ولاية تونس وحدود الجزائر، فمنحت الشركة الامتياز لأن الباي ومجلسه كانا متفقين على أن من مصلحة البلاد الإكثار من مد الخطوط لتسهيل المواصلات. ولكن هذه

الشركة لم تنجح في جمع رأس المال لهذا الخط، فطلبت مساهمة الحكومة بنسبة الربع في النفقات، فلم تُجَب إلى ذلك، وطلبت مهلة بعد مهلة دون أن تبدأ في العمل، فسقط الامتياز من نفسه.

وفي وزارة خير الدين طلبت شركة فرنسية الإذن لها بمد خط بين تونس والجزائر، فرفض خير الدين بحجة أن المسألة تتصل بالحدود، والباب العالي وحده هو صاحب الحق ـ بمقتضى الفرمان ـ في التصرف في هذا الشأن، فلا يمكنه أن يتفق مع الشركة بدون استشارته، ورأت الشركة أن هذا يورّطها، وأقل ما فيه أن طلبها من الباب العالي ذلك اعتراف منها بسيادته على تونس، فعدلت مطالبها وطلبت أن تحل محل الشركة الإنجليزية في مشروعها بالشروط نفسها، وهذا يجعل الأمر في يد الحكومة التونسية لأنه لا يصل إلى الحدود، وعرض خير الدين الأمر على مجلس الوزراء، فأجاب طلب الشركة.

وبعد ثمانية أشهر من اعتزاله الحكم عرضت الشركة تكملة الخط إلى حدود الجزائر، فأجيبت إلى طلبها.

قال خير الدين: إنه لم يسمح بمد الخط إلى الحدود، وإنه لو لم يسمح لفرنسا بما سمح به لإنجلترا لنشأت عن ذلك مشكلة دولية لم يكن فيها موقفه قوياً، ثم إن مد الخطوط الحديدية من مصالح الدول، ومن الخير أن تنشئها الدولة أو الأهالي، وليس ذلك في الإمكان، فالحكومة فقيرة تبتلع أكثر ميزانيتها فوائد الديون، والأهالي فقراء جهلاء أو أغنياء لا علم لهم بالشركات، ولا قدرة لهم على إدارتها، فلم يبق إلا منحها للشركات الأجنبية أو عدم إنشائها بتاتاً.

والحق أن مركز خير الدين فيه بعض الضعف. فتعديل الشركة مطلبها واقتصارها على جزء من الطريق يفهم منه البداهة أنها تريد وضع رجلها في مركز تثبت منه إلى الحدود كما حدث فعلاً. فالحزم كان يقتضي المنع بتاتاً، إذ من الواضح أنها جزأت مطلبها على دفعتين بعد أن طلبته دفعة واحدة، والنتيجة واحدة.

وكأنه أحس بضعف حجته هذه فحاول أن يريح ضميره بعد سقوط تونس إذ قال: "على أن الفرنسيين عند غزوهم تونس أنزلوا قواتهم في طبرق وبنزرت، واجتازوا منها الحدود إلى تونس، دون أن يعتمدوا على السكة الحديدية المذكورة التي كانت في بداية إنشائها".

كما قال: إن إنشاء هذا الخط ليس هو الذي أضاع تونس، ولا عدم إنشائه كان يحميها، لأنه مركز تونس لم يكن يحميه إلا الضمير الأوروبي الذي كان يوجب المحافظة على وحدة الدولة العثمانية، وما دامت أوربة سمحت لفرنسا بالانقضاض على فريسة هينة كتونس فخط الحديد لا يقدم ولا يؤخر.

وهذا ضرب من اليأس لا يصح أن يتسرب إلى نفس المصلح.

ونقده بعضهم بأنه أيام وزارته الثانية جاء فرأى قوانين الشورى ملغاة، فلم يعمل على إعادتها وإصلاح ما كان قد ظهر من عيوبها، بل حكم البلاد حكماً استبدادياً وإن كان عادلاً، وهو هو الذي طالما مجد الشورى في كتاباته وفي مقدمة كتابه، وطالما قال: إن الحاكم الذي يحكم بأمره وإن كان عادلاً ليس لعدله ضمان، إذ هو موقوت بوقته، فكان واجباً عليه ـ وقد ملك زمام الأمر ـ أن يعيد الحكم النيابي ويقويه في البلاد، حتى يذوق الناس لذته ويفهموا فائدته.

وكانت حجته في الرد عليهم أن الحكم النيابي في المملكة الإسلامية لا يتيسر إلا بأحد أمرين. رغبة الملك أو الأمير في ذلك، أو قوة الرأي العام وثورته للمطالبة بهذا الحق، على الرغم من رغبة الملك أو الأمير، والأمران مفقودان في تونس، فالباي يكره الحكم النيابي ولا يطيقه، والرأي العام جاهل خاضع، وليس يفهم مزايا الحكم النيابي إلا أفراد معدودون ليس لرأيهم قوة التنفيذ. وهب أن الباي قبل النظام النيابي أليس في إمكانه إلغاؤه ـ كما حدث ـ عند سنوح الفرصة مادامت الأمة ليس فيها من يحميه ويحرص عليه، العالمون بالأمور يرون أن حجته في ذلك واهية، فعندما أسندت إليه الوزارة كان قوياً. وكان الباي والناس يرون فيه المنقذ الوحيد لما آلت إليه الحال، فلو تشدد في عدم قبوله الحكم إلا بالنظام النيابي لاضطر

الباي أن يجيبه إلى مطلبه، وفي مدته كان في إمكانه تدعمه حتى يألفه الناس ويطمئنوا إليه، ويشعروا أنه حاجة ضرورية من حاجاتهم.

وعلى الجملة فهذا خير الدين بما له وما عليه، حكم البلاد مرة ثانية حكماً استبدادياً ولكنه عادل، وتولى أمر البلاد وهي فوضى في كل ناحية من نواحيها، فعالجها بحزم وضبط وقوة، وقبض بيد من حديد على المفسدين والمتلاعبين، ودفع البلاد إلى الأمام بأقصى ما يستطيع من قوة، وعالج في كياسة التيارات السياسية في أحرج أوقاتها، ولكن كان شأنه في ذلك شأن كل مستبد عادل، يزول فيزول بزواله كل إصلاح، وترجع الأمور إلى ما كانت عليه من اضطراب وفساد.

لقد سمع الباي إلى الوُشاة فصدّ عنه، وأوسع الطريق أمام الدساسين يدسون له ويشيعون الأراجيف[1] حوله حتى بالمتناقضات؛ ففريق يقول إنه يريد تسليم البلاد لفرنسا بدليل مسألة السكة الحديدية، وآخرون يقولون إنه يريد تسليم البلاد للدولة العلية وسلبها استقلالها بدليل مساعيه المختلفة في هذا الطريق. وقد نصح له بعضهم في هذا الموقف بأن يشرك معه الوزراء في تصرفاته، وتحمل المسؤوليات معه، وأن يقسم الإدارة إلى أقسام، ويجعل على كل قسم رئيساً يلقّب بوزير يتحمل المسؤولية في اختصاصه، ولا يرجع إليه هو إلا في الأمور الهامة، وبذلك توزّع الأعباء والمسؤوليات، ولكنه كان من الأشخاص الذين ضعفت ثقتهم بكل من حولهم، وشك في كل الرجال الذين ناصروا العهد الماضي، ولم يؤمن إلا بالله ونفسه. فخشيَ إن هو فعل ذلك أن يتلاعب من يسند إليهم العمل فيما يتولونه ويعقدوا له من المشاكل أكثر مما يحلون، فرفض هذا وظل قابضاً على زمام كل الأمور.

نجحت دسائس الدساسين فباعدوا بينه وبين الوالي، وزاد الأمر سوءاً أن الدولة العثمانية كانت قد دخلت في حرب مع روسيا، وطلب

---

[1] الأراجيف: الأخبار الكاذبة السيئة.

الباب العالي المعونة من الولايات ومنها تونس، فتراخى الباي عن إجابة هذا الطلب، وتحمّس خير الدين ودعا الأهالي إلى التطوع فتطوّعوا، وأرسل ما تطوعوا به إلى الباب العالي، فازداد الباي نفوراً منه لأنه لم يكن يسره الارتباط الوثيق بين تونس والدولة العثمانية.

وكان أخشى ما يخشاه الباي هياج الأهالي لعزله، لتعلقهم به وإظهار تعلقهم به في المناسبات المختلفة اعترافاً منهم بجميله. فلما كثرت الإشاعات حوله انتهز الباي الفرصة وأشعره بعدم رضاه عنه، فقدم خير الدين استقالته فقبلها الباي، وكان ذلك سنة 1294، وأمر الباي الموظفين بتجنبه حتى خاصة أصدقائه، وقد استأذن الوزراء الباي في زيارة خير الدين عقب استقالته فلم يأذن لهم، وأرْصدتْ حول داره العيون[1]، فكان في حقيقة الأمر معتقلاً، ولما سئم هذا العيش استأذن في السفر إلى أوربة لمداواة أعصابه، فامتنع الباي أولاً ورضي أخيراً، ثم طلب العودة على أن يؤمِّن على حريته الشخصية من غير أن يتدخل في الأمور السياسية، فلم يُرَدّ على طلبه بقول ولا رفض، فحضر بنفسه من غير أمان وضيّق عليه أكثر مما كان.

- 6 -

قضى خير الدين ـ بعد اعتزاله الوزارة ـ أعواماً سُوداً، فقد كان أشبه بسجين لا يزور ولا يُزَار، ولم يتجه إلى التأليف يتسلى به كما فعل في العهد الماضي، إذ كان في المرة الماضية شاباً آملاً، فأمسى في هذه المرة شيخاً يائساً، يرى كل ما بناه من إصلاح وما وضعه من خطط يتهدم على يد الباي وأعوانه حجراً فحجراً، وفرنسا تتقدم للقضاء على استقلال البلاد خطوة فخطوة؛ ثم إذا هو ضاق صدره مما يرى، وتهدمت أعصابه مما يفكر، سافر إلى أوربة يظن أن فيها سعة من ضيق، فإذا هي ضِيق فوق ضِيق، لا يلبث أن يشعر بالحنين إلى بلاده، فعل هذا مرتين، فكان يستشفى من داء بداء.

---

[1] العيون: الجواسيس.

وأخيراً وصلت إليه برقية من كبير الأمناء يأمره فيها بالحضور إلى الأستانة، فأطلع عليها الباي فتردد في الإذن له، وشاور قناصل الدول فأشاروا عليه بأن يسمح له، فسافر في شهر رمضان سنة 1295، وكان سفراً حزيناً تعطف عليه قلوب الناس ولا يتيسر لهم وداعه، لأن الباي أمر أن لا وداع، وترك أسرته وماله في حماية من لا يوثق بهم في الحماية، وقد كان له أملاك كثيرة: ثلاثة قصور أهداها إليه البايات المتعاقبة جزاءً له على خدمته أيام رضاهم عنه، وغابة من شجر الزيتون أهداها إليه الباي أحمد، ومنزل كبير به مياه معدنية أهداه إليه الباي محمد، وَضَيْعَة كبيرة منحها له الباي محمد الصادق، وقد أراد أن يبيع كل هذه الأملاك لعزمه على الاستقرار في الأستانة، فعرضها على الحكومة التونسية فأبت شراءها، فأمر وكيله أن يعلن للأهالي التونسيين بَخْفض أسعارها، فلم يتقدم أحد خوفاً من الباي ورجال حكومته، فلما اضطُر إلى بيعها للفرنسيين بعد سنة من إعلانه نقدوه نقداً مرَّاً، فكان الأمر كما قال أبو العلاء:

عِنَب وخمر في الإناء وشاربٌ

فمن المَلُومُ: أعاصرٌ أم حَاسي[1]!

* * *

وصل إلى الأستانة فوجد في انتظاره سليمان باشا مندوب السلطان عبد الحميد وحمدي باشا كبير الأمناء وعلي فؤاد بك السكرتير الأول للسلطان، وتوجه إلى قصر يلدز وَقيَّد اسمه فدُعِيَ للمقابلة في المساء نفسه، وتحدث معه السلطان طويلاً، واستبقاه للعشاء ليكتنه كنهه ويزنه بموازينه.

وأمر السلطان فأعد له جناح في قصر من قصوره الكبيرة وأرسل سليمان باشا إلى تونس ليعود بأسرة خير الدين.

---

[1] الحاسي: الشارب.

وسرعان ما عُيِّنَ وزيرَ دولة، فكان يدعى لحضور مجلس الوزراء عندما يجتمع لبحث المسائل الخطيرة، ولم يمض شهر حتى سمع من كبير الوزراء أن السلطان يرشحه لوزارة العدل، فرجا منه ورجا من كل من توسَّم فيه الجاه أن يسعى لعدم إتمام ذلك فلم يفد شيئاً، فذهب لمقابلة السلطان نفسه وتوسل إليه أن يُعفِيَهُ من ذلك فقبل رجاءه وأعفاه.

وكانت أكبر حجة له في الاعتذار أنه لا يستطيع خدمة البلاد ـ وخاصة من طريق الوزارة ـ إلا إذا عاش فيها زمناً طويلاً، عرف أهلها ودرس شؤونها وتعرف كُنْهَ[1] أمورها ووجوه الإصلاح فيها.

هذا ما كان يقوله. وأما ما يبطنه فهو أنه يرى أيضاً أن الدولة العثمانية أصبحت من المرض بحيث لا يُرجَى لها علاج في وضعها الحاضر، ثم هو دائم الحنين لتونس إذ صارت وطنه يأنس بها ويستوحش من فراقها، ويفضل أن يكون فرداً آمناً فيها على أن يكون وزيراً في غيرها.

هذا الذي كان يعتذر في إلحاح عن الوزارة يُدْعى إلى يلدز في الصباح المبكر يوم 4 ديسمبر سنة 1878م = 1295 هـ ويقابل السلطان فيخبره أنه عُين رئيساً للوزارة، ولما أراد أن يعتذر أبلغه أنه أمضى المرسوم ولم يعد في الإمكان إلغاؤه بحال.

أصبح خير الدين صدراً أعظم في أيام تواجه فيها الدولة العثمانية شدائد من أخطر الأمور وأشدها تعقيداً وارتباكاً.

فتركيا في حرب مع الروس ومنهزمة أمامهم، وجيوش الروس تتقدم وتهدد العاصمة نفسها. والأسطول البريطاني في مياه البسفور. وحالة البلاد الداخلية من مالية واقتصاد ونفسية أسوأ الحالات، حتى كان أصحاب المخابز يفضلون إغلاق مخابزهم على التعامل بنقود متدهورة تكاد تكون فاقدة القيمة و 380000 مهاجر لا مورد لهم ولا

---

[1] كنه الأمور: باطنها وحقيقتها.

مُعين يزحفون إلى العاصمة. ومعاهدة سان ستيفانو التي عقدت في برلين سنة 1878 كانت طويلة الذيول تتطلب عقد معاهدتين بين تركيا وروسيا في الأمور الخاصة بهما. وأبى الروس الجلاء عن أراضي الدولة العثمانية حتى تتم المعاهدة، وأبى الإنجليز سحب أسطولهم حتى تجلو الجيوش الروسية ومشكلة قبرص معلقة، والحالة مرتبكة مع النمسا لاحتلالها البوسنة. ومشكلة الأرمن قائمة.

في هذا الأتون المستعر[1] وضِعَ خير الدين ليُطفئ النار. وأي قدرة تستطيع إطفاءها من غير حرائق؟. لقد كانت سياسته "إنقاذ ما يمكن إنقاذه".

فبذل كل ما يستطيع من رأي وجهد حتى كان الاتفاق مع روسيا، ووضعت ضمانات تكفل مصالح المسلمين في بلغاريا وروملي الشرقي، وخفضَت التعويضات الحربية تخفيضاً كبيراً، وانسحبت الجيوش الروسية إلى بلغاريا وروملي، كما انسحب الأسطول البريطاني من بحر مرمرة، وسُوِيَّ الخلاف بين تركيا والنمسا بما حفظ لتركيا كثيراً من حقوقها. وحلت مشكلة الأرض التي استعصت على الحل نحو عشر سنوات الخ الخ، وبسياسته حقاً أنقذ ما يمكن إنقاذه.

وفي أيام وزارته هذه كانت مشكلة مصر الكبرى في آخر عهد الخديوي إسماعيل، فإنه لما اضطربت الحالة المالية والسياسية في مصر عزمت إنجلترا وفرنسا على التدخل في شؤونها تدخلاً آخر جديداً؛ فأرسلتا إلى قنصليهما في مصر ليطلبا من الخديوي إسماعيل نزولَه عن العرش لأكبر أبنائه "توفيق" فأبى إسماعيل محتجاً بأن ذلك من حق الباب العالي وحده، مؤملاً أن يرفض هذا الباب العالي مطلب الدول. وزاد الأمر سوءاً أن قنصلي ألمانيا والنمسا انضما في الرأي إلى قنصلي إنجلترا وفرنسا، فكانت هذه مشكلة جديدة أمام خير الدين في الأستانة، إن هو أجاب فقد سمح للدول الأوروبية بالتدخل فيما ليس من حقها، وإن هو رفضَ خَشِيَ أن تتجمع هذه الدول وتُصَمِّم،

---

[1] الأتون المستعر: الموقد المشتعل.

وتفعل بالقوة أكثر مما تصل إليه بالمفاوضة، وتقطع العلاقة الباقية بين مصر والدولة العثمانية، وتنتهز الفرصة السائحة فتلتهم إحداهما مصر والأخرى تونس الخ.

حار خير الدين طويلاً بين الرأيين هو ووزراؤه وسلطانه، وأخيراً كان من رأيه أن يطأطأ الرأس قليلاً أمام العاصفة، ويشير على السلطان بخلع إسماعيل، ولكن يجب أن يعمل شيئاً آخر مع هذا، وهو أن يتلافى الأسباب التي جرَّت إلى هذا التدخل الأجنبي، فيسلب بعض الحقوق التي أعطيت لخديوي مصر، كالاستدانة وعَقْدِ المعاهدات مع الدول الأجنبية فينتهز هذه الفرصة لتعديل فرمان مصر. ولكن أبتْ إنجلترا وفرنسا ذلك، لأن هذا يزيد في تَبَعِيّةِ مصر للدولة العثمانية، ومن مصلحتها أن تكون حقوقُ مصر أوسعَ وسلطتها أكبر للنتيجة المنتظرة.

وصدر الأمر بعزل الخديوي إسماعيل، وكثرة الأخذ والرد في مسألة تعديل الفرمان حتى خرج خير الدين من الوزارة، فأجابت الوزارة التي تلتها مطالب الدول في إصدار الفرمان المعتاد بعض التعديلات.

* * *

ثمانية أشهر قضاها رئيس وزارة كانت أعباؤها تساوي ثمانين عاماً. ولولا ما عُهِدَ إليه من حل المشاكل ما بقي هذه الأشهر الثمانية، ففيه من الصفات ما لا يتفق ومزاج السلطان عبد الحميد: حر الفكر، واسع النظر. متحمس في تحقيق الإصلاح، مُرْهَفُ الحس في العدالة وما يتعلق بها، يرى أنه وقد عين رئيساً للوزراء يجب أن يتحمل المسؤولية، فيصرِّف الأمور كما يرى هو وزملاؤه ليتحمل نتائج رأيه؛ فأما أن يأمره السلطان ويتحمل هو المسؤولية فليس حقّاً ولا عدلاً، السلطان يريد عبداً مأموراً، وهو يريد نفسه حرّاً مسؤولاً، لهذا نَفَرَ منه السلطان كما نَفَرَ منه الباي من قبل.

وتألَّب عليه أيضاً رجال الدين[1]، إذ كره منهم ضيق عقلهم وتعرضهم لما ليس من شأنهم، وتدخلهم في أمور من السياسة لا يحسونها. وكرهوا هم منه الوقوف أمامهم وضَغطه عليهم.

لكل هذا عُزِلَ خير الدين بعد ثمانية أشهر في قسوة، وما كان أقربَ مأتمه من عُرسه! وأدرك عبد الحميد أن قد خابت فراسته فيه، وظل بعد ذلك نحو عشر سنين في مقاعد النَّظَّارة. لا يمثِّل على المسرح شيئاً. وكل ما يرى مَآس لا مَلْهَاةَ فيها.

ومات وهو في الأستانة 1889 م - 1307 م عن نحو سبعين عاماً، ودُفن في جامع أيوب، وخلف تاريخاً في الإصلاح حافلاً، وكفاحاً للفساد طويلاً، وذنبه أنه لم يجد مُوَاتِياً[2] من الشعب ولا مؤازراً من السلطان.

لقد كان مصلحاً اجتماعياً وسياسياً من جنس مدحت باشا، غير أن الفرق بينهما كالفرق بين السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده؛ فمدحت يصلح، فإن عجز عن الإصلاح ثار ودَبَّر الانقلاب، وخير الدين يصلح، فإن عجز عن الإصلاح رفع يديه إلى السماء وقال: "اللهم إني قد بلغت".

وكانت فضائله التي تكوّن شخصيته الجرأة في قول الحق، وعمله من غير خوف، وصلابته فيما يعتقده من غير انحناء، وحريته في تفكيره من غير جمود، وقوة كواهِله[3] على حمل الأعباء من غير تبرم. فرحمة الله عليه.

---

[1] تألبوا عليه: تجمعوا.

[2] مواتياً: معواناً يوافقه.

[3] الكواهل: جمع كاهل، وهو أعلى الظهر مما يلي العنق.